أنيس منصور

التاريخ أنيابه وأظافره

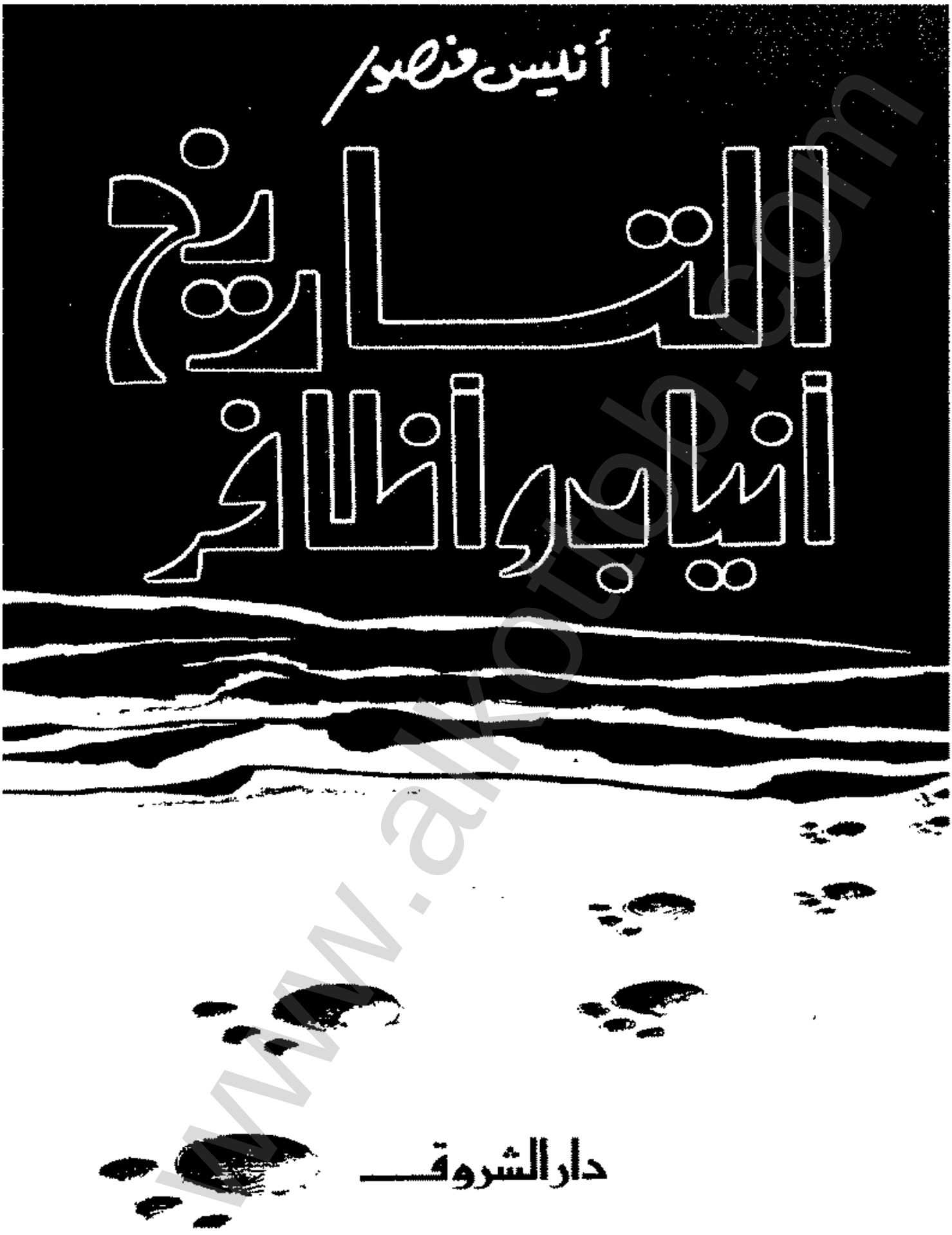

دار الشروق

www.alkottob.com

www.alkottob.com

التاريخ أنباء وأنظار

www.alkottob.com

الطبعة الرابعة
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
الطبعة الخامسة
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م
الطبعة السادسة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م
الطبعة السابعة
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد العالم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٢٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - حائف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

www.alkottob.com

أنيس منصور

التاريخ أنياب وأظافر!

دار الشروق

www.alkottob.com

فى هذا الكتاب

صفحة

هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمان ٥
كالحيوانات يموتون كما يولدون فى الظلام ١٥
علمته وتعلمنا هذه الحيوانات ٢٦
وراء جنكيز خان ربع مليون حصان ٣٩
خنازير كولمبوس ملأت العالم الجديد ٤٩
كل عصر له خرافات خاصة ٥٦
ذهب كل أرض تدوسها الأغنام ٦٥
أكاديمية لتعليم الانسان ٧٤
من يعرف الانسان كثيرا يحترم الحيوان اكثر ٨٥
هو يسقط والرئيس يطير ٩٦
لو نام الأرنب قليلا لأدركته السلحفاة ١٠٥
نظرية التطور رد لاعتبار الحيوان ١١٦
خلقها الله بعناية لتقضى علينا باتقان ١٢٥
هذه الكائنات التافهة التى حطمت الجيوش ١٣٤
لا وفاء عند الناس والكلاب نظرية ١٤٣
عندما أعلن موسوليني حرب الأبقار ضد الأغنام ١٥٢
شجرة واحدة تكفى هزها وأنت تعرف ١٦٣
قرود فى كل مكان ١٧٢
من ثاوب الأمهات خرجت موسيقى الخنافس ١٩٣
القرد والسلسلة والقردانى ٢٠٤
لولا سلامك .. سبق كلامك ٢١٥

www.alkottob.com

هذه الحيوانات
آلهة عاش عليها الزمن!

هـذا نوع آخر من التاريخ . انه مجموعة عظام . اى ان الحيوانات التى كانت تعيش من ملايين السـنين قد ماتت فى ظروف لا نعرفها . وتركت بقـاياها . وجاء العلم الحـديث فجعل العظام فحما . ثم درس الفحم وحلله وراح يعد ذراته ليعرف كم واحـدة من هـذه الذرات قد ماتت .. وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر هذه الحيوانات .

ويمكن ان يقال أن التاريخ : كومة تراب وجدها أحد العلماء فى أحد الكهوف . ففى الكهوف جاء الانسان القديم وامسك غصن شجرة وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران صـورا لهذه الحيوانات .. وجاءت الأجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الانسان وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الانسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى جديدة لكل ما حدث .. فالتاريخ عمل انشـائى .. أو موضـوع انشاء .. ففيه الكثير من الكذب الجميل .

www.alkottob.com

فالتاريخ هو ثكان سمك .. او حظيرة ابقار .. لانه تاريخ الحيوان على هذه الارض .. ولكن هذا التاريخ لهذه الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا . لان الحيوانات قد قاومت ملايين السنين . واكتسبت تجارب وتصلبت ضلوعها وارجلها وارتفعت اعناقها ونبت لها الريش والزعانف وقاومت قوى الطبيعة . وقاومت الانسان .. واستطاعت ان تبقى اكثر تنوعا واكبر عددا واطول عمرا .. وسوف تنتهي الحياة الانسانية على هذه الارض او تنتقل الى كواكب اخرى . ولكن الحيوانات هي التي سترث الارض وما عليها .

فكل الحيوانات التي تعيش الآن واضعف من الانسان كانت آلهة . عبدها الانسان وتلمس بركتها . واقام لها المعابد واشعل من اجلها الحروب .

وفي الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الاخرى . فكان هذه الحيوانات كانت فوق ، على العين والراس ، ثم اصبحت تحت احذية الانسان .. كانت آلهة فاصبحت عبيدا يسوقها ويذبحها. او يحبسها ويتفرج عليها .. ان كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمن !

عبدها الانسان .. ثم طاردها . وقتلها . ثم طاردها وصادها . وحاول ان يستانسها . وتحقق له ذلك ورباها ليذبحها ويأكلها . ثم استخدم بعض هذه الحيوانات في جر العربات وجر عربات التاريخ من قارة الى قارة ، ومن مرحلة الى مرحلة .. ففي السنة التي ولد فيها الرسول عليه السلام هاجمت الفيلة الكعبة . وكان ذلك عاما حاسما .. وسمي عام الفيل ..

www.alkottob.com

والقائد هانيبال زحف الى أوربا وأثار فيها الرعب وانسحبت أمامه كل قواتها لانه استخدم الفيل لاول مرة ..

والخيول دخلت مصر مع الهكسوس .. وبدخول الخيول مصر تغير وجه التاريخ .. وتغيرت معالم المعابد وجدرانها .

وحيوانات أخرى غيرها اشتركت فى ملحمة الحياة والصبر عليها والصمود من أجل ما هو أفضل لها ولصغارها .

وتاريخ الانسان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البقاء . انها معارك الصداقة والعداوة . معارك السيادة .. وكان من الطبيعى أن يسود الانسان بعقله . وقد سجل ذلك كله فى أغانيه وأعماله الفنية وفى أساطيره ..

والبداية قديمة جداً . فالحياة بدأت على هذه الأرض من ثلاثة آلاف مليون سنة . وكان شكل الحياة بسيطا بدائيا . عبارة عن خلية حية . هذه الخلية ظهرت فى الماء . والحياة على الأرض كلها خرجت من الماء . القرآن الكريم يقول : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . فقد كانت الأرض ملتهبة أول الأمر . وأخذت تبرد فى ملايين السنين . وتتكون من حولها السحب . ومن هذه السحب التى بها كل عناصر الحياة : الهيدروجين والاوكسيجين وثانى أوكسيد الكربون ومن ورائها ومن حولها الاشعة فوق البنفسجية التى تفيض من الشمس خرجت الحياة . أو كان « الجو » أو « البيئة » أو « الحضانة » التى لابد أن تخرج منها الحياة . وخرجت وكان ذلك فى الماء .

ومضت ملايين أخرى من السنين عندما انحسر الماء وأصبحت هناك محيطات وشواطىء من الوحل . والوحل هو الماء والطين معا . أو هو « الحل الوسط » بين البر والبحر ومضت ألوف السنين لتتعقد

www.alkottob.com

الحياة ويكون لها شكل . وتنتقل هذه الكائنات من البحر الى البر . وتعيش هنا وهناك . وما تزال فى المحيطات كائنات غريبةعجيبة، هذه الكائنات هى سلالات مستمرة من مئات ملايين السنين .

ونوجد بعض الآثار فى شمال امريكا وشمال اوربا نشير الى هذا النوع من الحياة التى ظهرت فى البحر وتسللت الى البر ثم عادت الى البحر ..

وفى الصراع المستمر من أجل البقاء تدرعت بعض الكائنات البحرية بالعظام والانياب حتى لا تفنى . وتطورت الأشكال المظلمة وانيابها وازدادت مرونة . بل اننا نجد بعض الكائنات البحرية اصبح لها فك اكثر مرونة . واقدر على ان يمسك وان يعض . وهذه خطوة هائلة فى تطور الكائنات البحرية .. او الاسماك .. ولا تزال بعض الاسماك محبوسة فى اقفاصها العظيمة . وهذه الاقفاص سجل تاريخى لما كانت عليه هذه الحيوانات من مئات ملايين السنين .

وفى الوقت الذى ظهرت فيه الاسماك فى البحر ، ظهرت الاعشاب على الشواطىء .. والشجيرات والاشجار الكثيفة .. وانتقلت الاسماك من البحر الى الشاطىء . وليس هذا الانتقال قصيرا كهذه العبارة . ولكنه طويل بملايين السنين . واهم ما حدث : هو أن هذه الحيوانات استطاعت أن تتنفس الهواء مباشرة ـ اى هواء الجو وليس الموجود فى الماء !

ومنذ ٣٠٠ مليون سنة حدث ارتفاع فى درجة حرارة الأرض . فذابت المساحات الهائلة من الجليد .وحدث طوفان . غرقت الأرض. وزحف البحر على الأرض . فكان كل شىء بحرا . وغرقت معظم الغابات وتراكم بعضها فوق بعض.ومضت الوف السنين . وانحسر الماء الساخن . أو الماء الذى يغلى . والذى جف . واحترق كل شىء

To: www.al-mostafa.com
www.alkottob.com

على الأرض . وتحولت الأشجار المحترقة الى فحم .. الى مناجم الفحم التى تستخدمها الحضارة الصناعية وقودا منذ مائتى عام ..

ولم تنعدم الحياة على الأرض .. بل كانت هذه الحياة قد اكتسبت تجارب جديدة ، واتخذت لها اشكالا متنوعة . وتعلمت الحشرات أن تطير من الأرض الى الشجر . ومن الشجر الى الشجر . بعض الأسماك كانت تطير أيضا . ولا يزال بعضها يرتفع من الماء الى الشاطىء . أو من البحر الى النهر . أو من النهر الى البحر .. وبعضها له زعانف كالأجنحة تماما .. أو هى اجنحة .

واجتهد العلماء فى تفسير ما حدث لهذه الحيوانات ، ذهابا وايابا من البر الى البحر .

ففى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وعلى أيام نابليون تصور العلماء أن تطور الحياة يشبه التطورات السياسية . ففى أيام نابليون كانت عروش تقام وعروش تنهار . وحدود يمحوها الانسان، وحدود جديدة يضيفها الانسان .. وتصور العلماء أن الحياة كانت على شكل ما ثم حدث ما غير هذا الشكل بعنف .. ومعنى ذلك أن تطور الحياة ، كالتطورات السياسية ، هزات عنيفة وانتكاسات وثورات . فتاريخ الحياة ينتقل من عنف الى عنف .

وظهرت نظرية تقول ان الزواحف أطول عمرا . لان الزواحف تخرج من الماء الى البر . وتعود الى الماء . وان هذه المرونة واتساع مجال الحركة والحياة قد أعطاها فرصا أكبر للبقاء لانها تضع بيضها على الشاطىء بعيدا عن الزواحف أو الاسماك المفترسة .

www.alkottob.com

ويظل البيض على الشاطىء أو فى الطين حتى تخرج الصغار من البيضة . واذا كان البيض يحمى الصغار حتى تخرج ، فبعد خروجها تفتقر هذه الحيوانات الصغيرة الى الحماية مرة أخرى . من مشاكل التماسيح الآن فى بحيرات أواسط افريقيا أنها تضع بيضها على الشاطىء وعندما تخرج التماسيح الصغيرة من البيض تعاجلها القردة بقتلها .. أو أن القرود تحطم البيض قبل أن يفقس .. ولذلك فالقرود خطر على هذه التماسيح !

وظهرت حيوانات ضخمة . هذه الحيوانات الضخمة كانت قادرة على أن تقاوم الحيوانات الصغيرة . ولكن هذه الحيوانات قضت على نفسها أيضا . فضخامة حجمها جعلتها أثقل حركة . وجعلتها أقل مرونة . وجعلتها اذا وقعت لا تقوم . واذا قامت تنحشر بين الأشجار أو بين الجبال . وتظل كذلك حتى تموت .. فالعلم الحديث كشف لنا عن عدد من فصائل الديناصور الهائل قد حبسها أحد الوديان حتى ماتت .. مع أن أصغر حيوان يستطيع أن يتسلق الأحجار وأن يصعد الجبل ومنه الى الوادى أو الكهف يستأنف حياته من جديد . فضخامة الأجسام آفة هذه الحيوانات .. فالكبير عاجز عن الشىء الصغير الذى ينقذه من الموت أو من الفناء ! وقد فنيت هذه الكائنات الكبيرة، لانها كبيرة . والفيل والنمر خير دليل على ذلك . الفيل أكبر وأقوى. ولكنه أقل حركة . ولذلك كان « مجاله الحيوى » ضيقا .. أى المساحة التى يستطيع أن يتحرك فيها أضيق من المساحة التى يتحرك فيها النمر ، فافترضت فيلة كثيرة جدا ، وبقيتنمور أكثر .. فالقوة ليست العضلات ، ولكنها القدرة على مواجهة المشاكل والافلات منها ، بالدوران حولها أو عدم التعرض لها ، أو بالقضاء عليها — انظر الى حياتك وتذكر مواقف معينة ثم تساءل كيف هزمتك أو كيف قهرتها ؟ مع فارق واحد : أن لديك عقلا ، ولدى

www.alkottob.com

الحيوانات مخالب وانياب . وانها بانيابها واظلافها واظافرها نقشت تاريخهـــا على انقاضها وانقاضنا . وبقيت وبقينا ولكننا اشـــدر وافضـــل !

ولابد من لفت نظر هنا والان وبسرعة :

حتى لا نتصور ان الحياة اخرجت نفسها من الماء الى الارض ، وزحفت وطارت وقامت وقاومت من تلقاء نفسها ، يجب الا ننسى أن هناك « ارادة عاقلة » .. ان هناك « حكمة واعيـــة » أو « عقـــلا كونيا » يعنى : الله ..

فنحن لا نقول مثلا ان فندق شيراتون عبارة عن مجموعة من قوالب الطوب .. أو مجموعة من الالواح الزجاجية أو الخشبية .. مع ان هذا الفندق مجموعة قوالب والواح واسلاك . ولكن الفندق ليس كومة من المواد المختلفة . وانما هو شكل هندسى معمارى . هذا الشكل هو مجموعة قوانين ونظريات فى العمارة والكهرباء والميكانيكا والاقتصاد والسياسة ايضا . انه صورة عقلية . صورة حكيمة . اى أن هناك عقلا أو اكثر من عقل جعل الطوب غرفا والالواح نوافذ والاســـلاك كهرباء وتليفونات وتلغرافات .. ثم هناك قواعد وقوانين تربط بين الموظفين والزبائن .. والذى يحدث فى فندق حدث فى الوف الملايين من الكائنات عندما تحولت من خلايا الى كائنات حية .. الى كائنات متطورة .. الى زحف مئيف نحو الحيـــاة والبقاء رغم كل الظروف الطبيعية والانسانية المضادة ..

هناك ـــ اذن ـــ حكمة الحياة .. التى هى ارادة هذا الكون..

www.alkottob.com

ارادة الله . التى لا نعرف منها الا القليل . لان وسائل المعرفة صغيرة فوسيلتنا هى العقل . والعقل ما يزال عاجزا من الكثير جدا (الف مرة جدا) مما فى هذا الكون .. مما فى هذه الارض .. أو مما فى هذا الجسم الانسانى أو الحيوانى .. أو فى هـذه الخلية الحية فى حيوان او انسان أو نبات ! ـ انتهى لفت النظر !

والنقوش فى الكهوف تصور الحيوانات على جدرانها . الحيوانات تجرى . بعض هذه الحيوانات تنزف دما . اذن لقد صورها الانسان وهو يطاردها . لانه اقوى منها . وهو يصورها دامية استعراضا لقوته . فالدم اذا نزف يدل على انه قتلها . وانه لا يخافها . وانما يغريه ذلك بأن يكرر ذلك مرة والف مرة . ونحن لا نعرف بالضبط ان كان الانسان قد استانس الحيوانات اولا ، ثم اكلها، او انه اكلها قبل ان يستانسها . على كل حال بعض النقوش تصور لنا هذه الحيوانات هادئة ساكنة ، كأنها رضيت بحكم انسان عليها . وحكمه عليها انه حبسها واذلها أو ذللها حتى اصبحت ذيلا له .. مثل كلبه تماما . والانسان كان يستخدم الكلب فى الصيد . ومعنى هذا انه استانس الكلب ثم اطلقه على الحيوانات . فالكلب هو اول حيوان استانسه الانسان . وعندما عرف الانسان كيف يستأنس هذه الحيوانات ، عرف ايضا ان يبنى الأسوار لتحمى الحيوانات وراءها . وكانت الاسوار من الأشجار ثم من الاحجار وعرف الحبال التى يمسك بها الحيوانات .. ولابد ان تلتف الحبال حول ارجل أو اعناق الحيوانات.

ولا يمكن أن تلتف الحبال دون أن يعرف الانسان كيف يصنع من الحبل « عقدة » . وعندما اهتدى الانسان الى « العقدة » كان قد

www.alkottob.com

اكتشف شيئا عظيماجدا . فهذه العقدة كانت رابطة للخيوط والانسجة والحبال . وقد تبدو العقدة عملا تافها . وهى بالفعل كذلك الآن . ولكن من مئات الالوف من السنين كانت اكتشافا لا يقل عن اختزان الكهرباء فى البطاريات الجافة فى السيارات والبطاريات والراديوهات وسفن الفضاء !

وتدل الآثار التى عثر عليها العلماء فى البرازيل أن الهنود الحمر كانوا يحبسون الخنازير دون أن يعرفوا انها طعام يمكنهم ان يعيشوا عليه .. كل انسان كان « يقتنى » بعض الحيوانات لا لانها طعام ، ولكن لانها جميلة الشكل فقط . اى ان الانســـان كان يصيد الغزال والماعز والحصان لان لها شكلا جميلا . ومعنى ذلك ان الانسان كان فنانا محبا للجمال . وهذا الحب للجمال معناه أن لديه ما يأكله ، وان لديه ما يتفرج عليه .. والانسان لا يســتطيع أن يحقق الفائدة المادية واللذة الجمالية الا من طريق القوة .. قوة الصيد وقدرته على حماية ما يصيده .. فاحتفاظه بهذه الحيوانات دليل على اقتداره ودليل على ذوقه .

وفى سنة ١٨٧٩ عثر الأب بروبل فى أسبانيا على نقوش فى كهوف . هذه النقوش هى القوة والجمال . فالحيوانات منطلقة بسرعة هائلة . والانسان قد سجل هـــذه الحركة . فهو اقتناها وراقب حركتها . وتمتع بذلك . ثم انتقل من مجرد الاعجاب الى تسجيل ذلك . وجاءت ابنة هذا العالم ، وبالصدفة ، فدخلت أحد الكهوف وراحت تصرخ بالاسبانية : توروس .. توروس .. اى ثيران . ولم يكن الذى رأته ثيرانا فقط وانما كانت هناك خيول ايضا . الوانها حية قوية جميلة . وكانت هذه الخيول والثيران تعيش على حدود أسبانيا وفرنسا من عشرين الف سنة .

وبعد ١٦ سنة عثر العلماء فى انحاء متفرقة من الكرة الأرضية على نقوش مماثلة تسجل ما جرى فى العالم فى نفس الوقت .

www.alkottob.com

ولابد أن فكرة « رأس المال » قد ظهرت فى هذا الوقت . لان كلمة « رأس » هذه قد جاءت من رؤوس الغزلان والأبقار والخيول . فالذى يملك عددا كبيرا منها هو الاغنى وهو الاقوى وهو القادر على صيدها والاحتفاظ بها وحمايتها واطعامها والتباهى بها . فهذه الحيوانات ثروة وقوة . ولا يزال راس المال قوة . ولا تزال بعض القبائل البدائية ترى فى كثرة الحيوانات مصدرا للقوة والسلطة . ولا يزال « المهر » هو عددا من الأغنام أو الابقار . ان تطبيعا منها هو استعراض واضح بارز متحرك لثروة الأب واهمية العروسين عند الأهل أو القبيلة ..

وبعد ذلك عرف الانسان ان الحيوانات ليست الا طعاما مدخرا .. طعاما يمشى على أربع .. والحيوان ليس الا حارسا للحمه حتى يجىء الانسان فيقرر ان يذبحه ليأكله او يذبحه ليبيع لحمه . أو يبيعه لغيره من الناس ..

والقصة طويلة ومتنوعة ومثيرة ومسلية وفيها الكثير من الاشارات والتلميحات الى الانسان نفسه كما سنرى .

واذا كانت الحيوانات يقتل بعضها البعض جوعا ، اى من اجل الطعام والبقاء بعد ذلك : فان الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل الحيوان او الانسان الآخر لاسباب اخرى غير الجوع . وقد حاول الانسان ان يقنع نفسه بالعدول عن القتل . ولكن هذه المحاولات لم تنجح بعد — مع أن حيوانات كثيرة قد عدلت عن ذلك من وقت طويل !

www.alkottob.com

كالحيوانات يموتون كما يولدون في الظلام!

الانسان حاول ان يفسر كل شيء حوله تفسيرا انسانيا . فهو ينظر الى سلوك الحيوانات كما ينظر الى سلوكه هو . فالحيوانات تخاف وتغضب . وتعيش حياة اجتماعية ولكل جماعة زعيم . وزعيم القطيع هو الذى يقودها يمينا وشمالا ..

واذا مات راس القطيع ارتبكت الجماعة حتى تجد لها راسا جديدا . والانسان قتل الحيوانات ليأكلها او خوفا منها . ولذلك خاف الانسان من هذه الحيوانات ان تنتقم من الانسان .

وهذا الخوف من الانتقام هو الذى جعله يكف عن قتلها بالالوف . فالخوف من الانتقام يمكن ان يكون بداية ظهور فكرة الضمير عند الانسان . فالضمير يقول له : لا تفعل كذا حتى لا تصاب بكذا .

ولذلك وجدنا الانسان من مئات الالوف من السنين يعلن ان

www.alkottob.com

بعض الحيوانات يجب الا يمسها بسوء .. او لا يمسها . فهى شيء ممنوع لمسه . فاللمس بمناسبة . ثم ان الانسان اتخذ من بعض الحيوانات رمزا له . او علامة مقدسة . او شيئا مقدسا يتلمس عنده البركة والوقاية من الحيوانات الاخرى ومن اعوانه من البشر .

وكثيرا ما اصيب الانسان بكل كوارث الدنيا ، ولكنه رغم ذلك لم يكفر بهذه الحيوانات المقدسة . تماما كالجندى الذى يحارب تحت العلم . ورغم ما اصابه من هزيمة فانه لا يمزق العلم . وانما يظل ممسكا به ايمانا منه بأن العلم هو شرفه وهو كرامته .. وانه لابد أن ينتصر مرة أخرى !

وظهرت عند الانسان فكرة اخرى تقول : انه بعد أن يموت فسوف يتحول الى حيوان .. او ينتقل من جلده الانسانى الى جلود مئات الحيوانات . ويعتبر انتقاله الى أجسام الحيوانات الاخرى نوعا من الانتقام منه .. فحتى لا يكون حيوانا بعد وفاته ،فمن الافضل الا يؤذى الحيوان بقتله او أكله !

وربما كانت هذه الفكرة هى التى ادت فيما بعد الى أن يقال أن الانسان اصله حيوان .. وانه ينتقل من الحيوانية الى الانسانية ومنها الى الحيوانية مرة أخرى — وهذه هى « الدائرة الحيوانية » التى يتحرك فيها الانسان حيا وميتا .

وعند الفراعنة كانوا يرون أن الانسان يتحول الى حيوان بعد موته . وبعد أن يبقى حيوانا ثلاثة آلاف سنة يعود انسانا مرة أخرى . وبعد فترة قصيرة يعود من الانسانية الى الحيوانية من جديد .. والمصريون القدماء يرون ان كل شيء ثابت الا الانسان ..

www.alkottob.com

فالنيل له مواعيد للفيضـــان ، والشمس تشرق وتغرب .. والقمر يصغر ويكبر .. كل ذلك فى مواعيد ثابتة .. الا الانسان فان حياته متغيرة متبدلة .. وهذا التبدل اهم مظاهره : ان ينتقل الانسان من جسم الانسان الى جســم الحيوان . وهذا الانتقال بالروح . فهذه أولى نظريات تناسخ الأرواح . وهذه النظرية قد انتشرت لاسباب غير واضحة لنا الآن ، فى الشرق والغرب . وفى القرن السادس قبل الميلاد . ممثلا عند الفيلسوف اليونانى فيثاغورس ، وعند تلامذته من بعده . وعند الراهب الكبير بوذا فى الهند والصين . ولكن بوذا كان حريصا أن يؤكد لتلامذته أن كلامه عن الحيوانات ليس الا رمزا .وانه استخدم الحيوانات فى نصائحه لتجسيد أفكاره وجعلها واضحة عند أقل الناس قدرة على الفهم . ولكن تلاميذه أخذوا نصائحه حرفيا ..

يقول بوذا .. ايها الرهبـــان هنـــاك اناس كالحيوانات . او حيوانات يعيشون على الاعشـــاب . ايها الرهبـــان انها الخيول والاغنام والابقار والحمير وكل من يحب الطعام يرى ان الحياة هى الطعام ومن اجل الطعام هو هذه الحيوانات . واذا قدر له ان يعيش بعد الموت فانه سيكون حيوانا مرة اخرى .. ايها الرهبان هنـــاك حيوانات تاكل الزبالة مثل الكلاب والكتاكيت والخنازير . ان الزبالة تنعشها وتهبها الحياة . ولو ماتت لتمنت ان تعود الى الزبالة .. ايها الرهبان ان هناك اناسا هكذا . افهموني . ايها الرهبان : ان هناك حيوانات ولدت فى الظلام وسوف تموت فى الظلام . النـــور يوجعها ويضللها ويفزعها . ان هـــذه الكائنـــات هى البراغيث والصراصـــير والخفافيش والبوم .. ان هنـــاك حيوانات ولدت فى الماء وماتت فيه كالاسماك والسلاحف والتماسيح.. ان الاشرار، ايها الرهبان ، هم الذين بعد موتهم يفضـــلون الحياة الدنيـــا انهم .. مشدودون اليها . انهم عاجزون عن الانســـلاخ من الجســـد من المادة من الشهوة .. انهم حيوانات » .

www.alkottob.com

ولم يفهم تلامذته مئات السنين أن المقصود ليس الحيوان ، وانما الحياة الحيوانية ..

وعند الاغريق وجدنا الآلهة يعاقبون الانسان بأن يمسخوه حيوانا. أو انهم يقومون بتهريب الانسان فى صورة حيوان .. ومن السهل جدا أن يتحول الانسان الى حيوان ثم يعود الى انسانيته . والاغريق عباقرة فى حكاية هذه الخرافات . وفلسفتها وتعميقها . والشاعر أوفين فى كتابه « التحولات أو مسخ الكائنات » من ترجمة د. ثروت عكاشة يقدم لنا روائع القصص والمغامرات وكنزا من المعانى الرائعة . ولكن الاغريق يرون أن الانسان هو اسمى الكائنات . بل انهم يرون أن الانسان أعظم من الآلهة وقادر على أن يتغلب عليهم بل أن الآلهة تحقد على الانسان وبعض الآلهة يتمنى ان يكون انسانا ولكنه لا يستطيع .. ولذلك فالاله اذا اراد ان يتفوق على الانسان كان من الضرورى أن يمسخ نفسه انسانا .. فاذا فعل تغلب عليه الانسان . ولذلك فان الآلهة تتكاتف معا ضد الانسان القادر على التمرد على كل الآلهة !

والعالم الكبير فريزر يقول : لابد أن الخنزير كان حيوانا مقدسا عند اليهود من الوف السنين . فاليهود يحرمون أكل الخنزير ويحرمون اكل الجمل . ويرون أن الجمل مصدر لكثير من الامراض . ولكن السبب الحقيقى أن الخنزير لا يناسب الحياة التى يعيشها البدو فى المناطق الحارة . فهو بطىء الحركة . وهو فى حاجة الى كثير من الطعام ، وغير قادر على أن يتحمل الجوع فكرهوه ووجدوه عبئا ثقيلا عليهم . وقد اثبت العلم الحديث ان لحم الخنزير هو مصدر متاعب المعدة والامعاء . وتحريم لحمه صحى ايضا (وفى التوراة نجد وصفات علاجية من طريق لحم الطيور . فقد وصف الانبياء

www.alkottob.com

اليهود لحم الطيور علاجا للمصابين بكثير من الامراض الجلدية التى استعصى شفاؤها) .

شىء عجيب حقا أن يتقدم الفراعنة فى كل مجـــالات المعرفة وان يسبقوا زمانهم ، وانهم لا يزالون اسبق شـــعوب العالم فى الفلك والتحنيط ، ومع ذلك يقدسون الحيوانات !

والحيوانات التى يقدسونها كثيرة . وهذا يجعلنا نعتقد ان الفراعنة كانوا نباتيين . انهم يقدسون الابقار . والعجل آبيس (بالالف الممدودة والباء الثقيلة) قد مثر عليه العالم الاثرى ماريت فى سقارة . وهذا العجل موجود بطول وعرض الحضارة المصرية . وتماثيله واضحة وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه . وكانت تقـــام له الحفلات . وتقام له الجنازات اذا مات . وبعد وفاته مباشرة ينطلق الكهنة بين قطعان الماشية يبحثون عن معبود له علامة خاصة فى راســه أو عنقه أو جسده ـــ فاذا وجدوه اقاموا الحفـــلات وتوجوا المعبود الجديد . واستراح الناس لانهم عثروا على رب لهم ، أو حارس لهم يحميهم من الحيوانات الاخرى .. ولذلك قدموا له طعاما خاصا وحريما من الاناث !

والفراعنة عبدوا الطائر « ابيس » ـــ بالالف المكسورة والبـــاء الخفيفة ـــ وهذا الطائر شبيه بابو قردان ولكنه ليس هو . ويقال انه الطائر ابو منجل .. ويقال ان هذا الطائر قد انقرض ولم يعد احد يراه الا فى أعالى النيـــــل وفى المتحـــــف المصرى . انه بنى العنق والذيل متوسط الحجم .

www.alkottob.com

والتمساح الذى وصفه هيرودوت بانه يملأ النيل . وان سكان العاصمة المصرية لا يعرفون طعم النوم بسبب بكاء التماسيح . وقد ظل العالم كله يتصور أن التمساح يملأ النيل حتى ان زعيما عالميا كبيرا سأل الرئيس عبد الناصر ان كانت التماسيح ما تزال فى مياه النيل عند القاهرة ؟ !

ولم يكن حيوانا مقدسا عند كل المصريين . فالناس فى «اسوان» كانوا لا يكنون له احتراما كافيا . كانوا يأكلونه . وقد جاء فى احدى الاغنيات المصرية القديمة ان واحدا يقول ما معناه : اقوم من النوم اقول يارب عدلها ، بلد حبيبى قصاد عينى ومش قادر اعدى لها .. وكان المصرى القديم يقول : بلد حبيبتى امام عينى ولكن لا استطيع ان اذهب الى حبيبتى . ان التماسيح فى المـــاء ولكن حبى جعل التماسيح ضفادع .. ثم جعل الضفادع فتاتيح فى المـــاء . ولا بد ان اذهب الى حبيبتى » .

وكان المصرى القديم اشجع واصدق واكثر استعدادا للتضحية . اما المصرى الجديد فهو قد افتعل صعوبة العبور الى حبيبته ليشكو . فهو قادر على ان يذهب الى حبيبته ـــ ان كانت حبيبته ـــ فلا مشاكل فى المواصلات ولا تماسيح فى النيل ..

وفى « كتاب الموتى » الفرعونى اجد كلاما كثيرا عن « القط » الذى يمزق الاعادى تحت الاشجار المقدسة . ومن الغريب اننا لا نجد رسوما كثيرة للقط فى المصاطب القديمة . وربما كان اول ذكر للقط قد جاء قبل الميلاد بعشرين قرنا عندما عرفنا ان زوجة احد رجـــال بلاط الملك منحوتب الاول اسمها « بوسى » . وان هذا القط جاء الى

www.alkottob.com

مصر من الغرب ومن الجنوب . وهناك رسومات كاريكاتورية تبين الفنان المصرى وهو يتسلى أو هو يحاول ان يجد الموعظة الاخلاقية. فهناك صور لجثث من الفئران تهاجم قطا محاصرا فى قلعة . وهناك فار عملاق امام قط مربوط بالحبال !

اما الكلب فهو من اخلص الحيوانات للانسان ، ولذلك استحق منه عظيم الاحتقار . وقد جاء خطـــاب بعث به موظف مصرى قديم يعيش على اطراف الوادى : انه لا يكاد يفتح باب بيته حتى يتقـــدم له ٢٠٠ قط و ٣٠٠ كلب متوحش و ١٠٠ ذئب . كلها تقف امام بابه، فلا هو قادر على أن يخرج ولا هو قادر على أن يربى ماشيته ولا على ان ياكل .. اما النوم فهذه مشكلة المشاكل :

والحمار افريقى الأصل . وهو لا يزال فى مصر كما كان من آلاف السنين . والحمار كالكلب استحق احتقار الانسان ايضا . وأول مرة رأينا فيها رسما لحمار كان هكذا : حماران احدهما يمشى وراء الآخر وأمام الاثنين جحش صغير . وقد رأينا كرســـيا على ظهر الحمار الاول . ولم يشأ الرسام ان يبين لنا ما الذى يحمله الحمـــار الآخر .. ولكن لابد انه يحمل شيئا مماثلا .

ويقال ان المصريين وصفوا احد ملوك فارس بانه : ملك حمار . فما كان من الملك الفارسى ارتكسركس الثالث الا أن اقام احتفـــالا للعجل ابيس ، ووضع حمارا بدلا من هذا العجل وغضب المصريون وثاروا ! !

ويقال ان المصريين القدماء كادوا يحرقون مدينة الاسكندرية ذات

www.alkottob.com

الطابع الاغريقى والتى تقام فيها تماثيل ادوليس والفروديت ، لان احد الرومان قد قتل قطا !

اما الحصان فالمصريون قد عرفوه أيام الاسرة الثامنة عشرة . ويقال ان الحصـــان قد اتى به الهكسوس ـــ وهم ملوك الرعاة . ولكن ليست هذه حقيقة مؤكدة . فمن المعروف أن الحصـــان قـــد استخدمه البابليون قبل ذلك بوقت طويل . وعندما دخل الهكسوس الى مصر ، كان الحصان قد سبقهم اليها . ولا يزال الحصان يحتفظ بالاسم العربى القديم : سوسيم ـــ اى خيول . والعربات اسمها : مركبوت .

اما الجمل فلم يدخل مصر الا فى عهد الرومان ..

والمصريون قد عرفوا الخيول التى تجر العربات قبل أن يعرفوا ركوب الخيول نفسها . وفى متحف اللوفر لوحة مشهورة اســـمها لوحة النسور . ففى هذه اللوحة بعض النسور تحوم حول جثث القتلى بينما نجد احد ملوك سومر يركب عربة يجرها حصان . وكان ذلك قبل الميلاد بعشرين قرنا اى على ايام حامورابى ..

والخيول حيوانات مفضلة عند الاغريق . فهم يرون أن الحصان: حيوان نبيل جميل . وان الحصان لابد ان يكون الآلهة قد صنعوه بايديهم مباشرة . اى انهم لم يكلفوا احدا من صغار الآلهة بصنعه .. وكان الاغريق يفضـــلون الحصـــان لأن فيه تمردا اى نزوعا الى الحرية . فهو جميل نبيل حر . وكلما كان الحصان شرسا ، كان ذلك مجالا وتحديا للانسان ان يستأنسه فاذا فعل فهو بطل . الاسكندر

www.alkottob.com

الاكبر مثلا كان له حصانه المشهور بوسيفالس . ولم يكن أحد يقدر على ركوبه . ولكن الاسكندر استطاع عندما اتجه بحصانه ناحية الشمس . والشمس هى التى جعلت الحصان أقل انطلاقا . ولم يكن هناك شيء أعز عند الاسكندر من هذا الحيوان الجميل . فلما مات حصانه اقام له المدن باسمه . واقام مدينة فى نفس المكان الذى دفن فيه رمزا للوفاء . فقد حمله هذا الحصان حتى الهند !

واتخذ الشعراء والفنانون الكثير من الحيوانات مادة لاعمالهم الفنية . فهم يختارون للحيوانات أدوارا فى الحياة الاجتماعية والسياسية للانسان . ويجعلون للحيوانات حياة تنقذ حياة الانسان. والمؤلف المسرحى العظيم اريستوفانيس له مسرحيات : الغربان والضفادع والطيور .. وقد استخدم هذه الحيوانات للسخرية من الانسان . وقد فعل ذلك كثيرون من الادباء فى كل العصور .

والكاتب اليونانى سيمونيدس عندما يتحدث عن أصل المرأة يقول ان هناك اربعة انواع من النساء : نوع جميل نبيل انحدر من الخيول . والثانى هو الذى لا يكف من العمل ، ولابد انه انحدر من النحل . والنوع الثالث هو الذى يدفن نفسه فى الانجاب وهو الذى انحدر من بذور القمح . والنوع الرابع القذر الدنيء ولابد ان يكون قد انحدر من كلبة ـــ ولا تزال كلمة « كلبة » فى اللغة الانجليزية احط انواع الشتائم .

وهناك الفنان اليونانى الشهير ايسوب . كان عبدا واطلق سراحه.وظل يرتقى حتى أصبح سفيرا . وقد روى قصص الحيوانات ونوادرها وهو لا يرفع عينه عن الانسان وسفالته وانحلاله الخلقى.

www.alkottob.com

ويقال ان ايسوب هذا قد هاجم رجال الدين . ودبر له رجال الدين مكيدة . فعندما زار معبد الفن اتلح رجال الدين ان يضعوا كوبا من الذهب فى ملابسه . ثم ضبطوه وحوكم . وتقرر اعدامه قذفا من احدى الصخور ، فمات غريقا !

ـ وظل الانسان الوف السنين ينظر الى الحيوانات على انها كائنات ناقصة التكوين ترى ولا تعرف كيف تعبر . أو اذا عبرت كان ذلك فى صمت . وراح الانسان يفسر سلوك هذه الحيوانات كما يفسر سلوكه هو . ولكن رجلا عبقريا هذا اسمه ارسطو هو الذى ارسى قواعد علوم باكملها بعقله الجبار . فهو بدأ ينظر الى الحيوانات ويلاحظ سلوكها . ويقارن بين بعضها البعض .. فهو الذى ادرك أن حيوانات لها دم وحيوانات لا دم لها .. حيوانات لهـا فقرات وحيوانات بلا فقرات .. حيوانات تلد وحيوانات تبيض .. وهو اول من اشار الى أن هناك علاقة بين بيض الدجاجة وبين الديك. وهذا يكفيه جدا أن يقول ذلك منذ ٢٥ قرنا . وقد احصى ارسطو فى كتابه « التاريخ الطبيعى » حوالى ٥٠٠ حيوان .

ويقال أن الاسكندر الاكبر هو الذى كان يبعث اليه بالحيوانات والنباتات العجيبة من كل مكان يذهب اليه . ولكن هذه الحيوانات مهما بلغ عددها لم تكن سببا كافيا لان يهتدى ارسطو الى هذه الحقائق الحيوية . لقد اخطأ ارسطو كثيرا فى الاستنتاج . ولكن هذه اخطاء تعتبر تافهة اذا قورنت باكتشافاته العظيمة فى علوم الحياة ووظائف الاعضاء . لقد اخطأ فى عدد الاسنان وعدد الضلوع وعدد الفقرات .. ولكن اشاراته الى الحياة فى بطن الام ، هى الخطوات الاولى الباهرة فى العلم الذى سوف يظهر بعد ذلك باسم « علم الاجنة » .

www.alkottob.com

وعندما سئل ارسطو فى احدى المرات : ما الذى تفعله بالضبط مع هذه الحيوانات والنباتات ؟

قال : لا شىء . اننى فقط اعلمها كيف تنطق باللغة اليونانية لعلى افهم شيئا مما تقول . ولكنها مع ذلك لا تقول كثيرا ! !

سوف تقول اكثر فيما بعد !

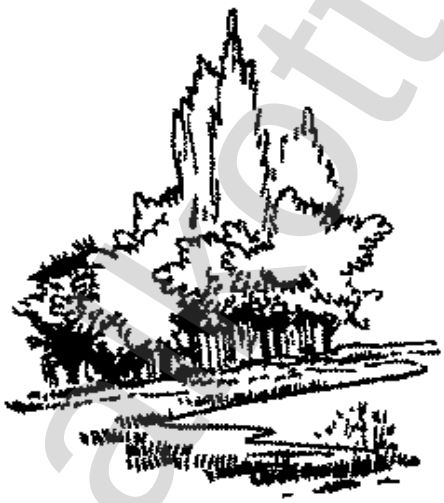

www.alkottob.com

علمته وعلمنا هذه الحيوانات !

ثلاث مراحل مرت بها الانسانية ..
مرحلة : اكلنا الرغيف وتفرقنا !
اى كل ما كان يجمع بيننا هو لقمة العيش .
ومرحلة : اننى اعـــرف جانب الرغيف الذى اضع عليه الزبدة .
فهنـــاك اكثر من الرغيف .. ثم ان للرغيف جانبين . وانا لا اكل الزبدة لاننى وجدتها . ولكنى استطعم الزبدة واختار لها المكان المناسب .
ثم ان عندى متسعا من الوقت !

ثم مرحلة : كل ما اطلبه من هذه الدنيا هو الرغيف والفرفشة !

اى اكل رغيفى وابسط نفسى بالضحك واللعب والحب . وبعد ذلك لا شىء . ويجب الا يكون هناك اى شىء آخر .

www.alkottob.com

الاديب الرومانى القديم الساخر جوفينال قال : ما الذى يريده هؤلاء .. العمال .. لا شيء الا الرغيف والذهاب الى السيرك !

ولم يكن جوفينال يحترم العمال وانما يحتقرهم . فهو يرى ان الذى يعمل بيديه لا رأس له . فقط ياكل ويحب . ولا قيم أخلاقية ولا دينية ولا مثل عليا ولا طموح !

ولكن جوفينال من ١٩ قرنا كان ظالما . فهؤلاء العمال كانوا يطلبون الخبز ، لانهم لو طلبوا شيئا آخر ما وجدوه ، لو طلبوا اللحم مثلا ، فمن أين يشترونه لو وجدوه فى الأسواق . فلم تكن الحيوانات متوافرة فى ذلك الوقت . لأن اللحوم ما تزال طعام القادرين . أما الفقراء فليس لهم الا الخبز والضحك على الاغنياء والسخرية من فقرهم — ولا تزال هذه مشكلة مئات الملايين فى العالم .

* * *

وما حدث فى الحرب العالمية الثانية دليل جدا على ذلك . ففى أثناء هذه الحرب ماذا جرى ؟ الجنود وحدهم هم الذين يجدون اللحم . وطبيعى الا يبخل احد عليهم بذلك . فقد ذهبوا يقدمون أرواحهم من اجل الآخرين .. ثم ان عمال مصانع الذخيرة ارتفعت أجورهم واصبحوا قادرين على شراء الرغيف واللحم ومع ذلك فان امريكا نفسها قد وزعت اللحوم بالبطاقات !

فكانت اللحوم نوعا من الترف . لأن الأرض لا تستطيع ان تطعم كل الحيوانات . والحيوانات لا تستطيع أن تشبع كل الناس . والاغنياء فى الدنيا يملأون موائدهم بلحوم الحيوانات

www.alkottob.com

والطيور والاسماك ، والفقراء يلتقطون فتات الخبز . ومع بداية حرب الطبقات فى التاريخ ، اتخذت الحرب شكل الصراع بين الخبز واللحم .

ففى المدن الاغريقية القديمة ، كان لابد ان يجد الأغنياء وسيلة للحصول على اللحوم ، فزرعوا المراعى .. او تركوا الحيوانات تأكل الأعشاب والغلال والاشجار ، ولم نجد فى الادب الاغريقى القديم حديثا كثيرا من الحيوانات ولحومها وطعامها وطعامهم .

ولكن عند الرومان نجد هذا التخصص فى الاستمتاع بالطعام ونقرأ نثرا وشعرا عن الخبز والقبلات واللحم .

(ومن المناسب هنا أن انبه الى اننا الآن نتعلق من ذيل بقرة او جاموسة او كلب ونمشى معه أو وراءه فى تاريخ الانسان .. فانا وانت معا نقرأ « بصمات » الحيوانات على عقل وقلب ومعدة ملايين الناس فى الوف السنين — انتهى التنبيه الذى اضافته حتى لا تنسى ولا انسى انا ايضا عن اى شىء نتكلم منذ اسبوعين وفى الاسابيع التالية .

وهذا يذكرنى بما قاله داروين عندما وجدوه يجمع الأصداف وجذور النباتات وجماجم الحيوانات فقال : لا شىء سوى أننى أقفز من شجرة الى شجرة وراء قرد فيه شبه كبير جدا بالانسان) ! ..

* * *

نعود الى صورة غريبة لرجل عظيم مات منذ اكثر من عشرين قرنا . هذا الرجل اسمه « لوكولوس » . هذا الاسم يتردد فى كتب كثيرة فى التاريخ . ففى تاريخ المعارك كان قائدا عظيما .

www.alkottob.com

ذهب بقواته الى ارمينيا وهزمها . وسحقها ومات من جيشه خمسة من الضباط وجرح مائة جندى . جيشه كله كان ١٨ الفا. هذا الرجل عندما اتجه الى روما توقف عند احدى المدن الارمنية وبكى ، فقد احالها جنوده ترابا !

هذا الرجل ايضا كان يحب الكلام ، او يحب الكلام اثناء الطعام. وهو اول من قال : ان الكلام يساعد على الهضم . وكان سابقا لعصره بعشرين قرنا . فالأطباء اليوم يرون أن الجلوس الى المائدة يجب أن يطول قدر استطاعتك فلم تعرف الانسانية ترحة المعدة الا عندما عرفت السندوتش . اى عندما عرفت الاكل اثناء المشى واثناء القراءة واثناء العمل واثناء الفرجة على المسرح وعلى السينما وعلى التليفزيون .. ولم تعرف الانسانية اوجاع المصران الغليظ الا عندما عرفت الموائد الصغيرة فى المطاعم اذ يجلس الزبون وحده وقد أدار وجهه الى الحائط . وهو قد أدار وجهه الى الحائط لانه مشغول بهمومه الخاصة . وهو — ككل ابناء المدن الكبرى — حريص على أن يكون مع همومه وحده .. وتتأكد له هذه الوحدة ، والقرحة ايضا !

* * *

وهذا الرجل ايضا عندما توفى حاول الناس أن يدفنوه فى احتفال ضخم . ولكنه قد سبقهم جميعا واوصى بأن يموت على مزاجه . فطلب الى اقاربه ان يملأوا قبره بالتفاح وان يتغطى به وبالورود!

وبعد وفاته جاء الصيادون وجمعوا من البحيرات التى انشاها حول قصره ٢٥ الف كيلو سمكا !

www.alkottob.com

واذا جاء ذكر الفلاسفة فلم يكن هذا الرجل مفكرا عظيما . وانما كان عاشقا لكل صاحب فكر عظيم . وكان اذا اراد ان يتحدث مع احد طلب اليه أن يزوره فى بيته . فاذا جاء الى البيت راح الاثنان ياكلان ويشربان ومن المؤكد انه قد شهد ميلاد الكثير من القضايا الفلسفية والاجتماعية والسياسية . وكان يضحك دائما ويقول : مساكين هؤلاء الفلاسفة . انهم لا يجدون ما ياكلون واذا وجدوه لا يستطعمونه . انهم اناس لديهم مشاكل فى احشائهم — ولم يكن فى هذا مبالغة . بل كان سابقا لعصره بمئات السنين!

لاسباب اخرى يهمنا هذا الرجل لوكولوس . فهو أول من ابتدع « البيسين » .. اى حفر الارض وملأها بالماء . ثم القى فى الماء الاسماك . وكلمة « بيسين » معناها فى اللاتينية حوض السمك. وهو كان حريصا على ذلك لانه يريد أن ياكل السمك طازجا . وكان ياتى بالاسماك من اماكن مختلفة من العالم . وهو ايضا أول من ابتدع « الكباريه » .. فهو قد صنع كهوفا تحت الأرض .. واضاءها .. وجعل الراقصات والمغنيات يفرفشن الضيوف .. ثم أول من جعل الحيوانات تمر بين الصفوف ليتفرجوا عليها . وكان ياتى بالحيوانات والطيور النادرة من افريقيا . وكانت الكهوف ملونة . وكانت عليها نقوش للآلهة واساطير الاغريق واساطير الشعوب القديمة .

وهو أول من اتى بثمرة الكريز من البحر الاسود . وقدمه لضيوفه .

. وهو ايضا أول من اتى بالحيوانات المفترسة واطلقها فى غابة لها اسوار . فكان اول من اقام حديقة حيوانات فى اوروبا . وهذه

www.alkottob.com

الفكرة ماخوذة عن الشرق ، فقد كان من عادة الملوك فى الشرق ان يحتفظوا فى حدائقهم الخاصة بالحيوانات النادرة . وعندما جاء الاسكندر الاكبر الى الشرق كان يضع الى جوار خيمة القيادة اسدا اسيرا ـــ رمزا لقوته هو ، وانه سوف يفعل نفس الشىء مع اعدائه !

وكل هذه العناية بالحيوانات والطيور والاسماك كان من أجل متعة الاغنياء والحكام . ولذلك كان النـــاس ـــ ولا يزالون الى حد ما ـــ يحتقرون صناعة الجزارة . لانها قتل للحيوان بينمـــا الاغنياء يفضلون أن يبقى الحيوان حيـــا . فهم ليسوا فى حاجة اليه . أو ان لديهم ما يكفيهم . ولذلك يجب أن يتفرجوا ويستمتعوا. فاكل اللحوم ليس مشكلة . وانما هم انتقلوا من مشكلة الطعام الى الاستمتاع به والتفرج على الذى زاد على حاجتهم !

ومن الغريب أن الرومان كانوا يشربون البسان الحيوانات . ويصنعون منها الجبنة .. ولكنهم يحتقرون من يأكل الزبدة .. ولكن هذا المعنى تغير عندما اهتدت احدى الغانيات الى ان الزبدة اذا وضعت على الوجه او على البشرة فانها تجعلها ناعمة لينة. فارتفع ثمن الزبدة ، واصبحت الزبدة هى صناعة كل البيوت ، ومطلب كل النســـاء .. ووجدنا فى الادب اللاتينى مثـــل هـــذه العبارات : انها زبدة .. انها تذيبك كمـــا لو كنت زبدة .. ان بشرتها لم تعرف الزبدة . انها هكذا خلقها الله !

وعرف الرومان ايضا « حظائر » الابقـــار . فكانوا يحبسون الثور مع سبعين بقرة . ويشترطون أن يكون الثور ابن سنة او ابن سنتين على الاكثر . أما الثيران التى تزيد اعمارها عن ذلك

www.alkottob.com

فانهم « يعقمونها » ويطعمونها لتزداد سمنة فيتكدس لحمها على موائد الاغنياء والقواد ..

* * *

يقول لوكولوس وهو يهذى على فراش الموت : يا خسارة لم تشأ الآلهة أن تجعل لى معدتين . لعلها ارادت الرفق بالفقراء وبالحيوانات وبالطيور وبالأسماك وبمعشوقاتى .. لو كانت الآلهة تجيب لى طلبا اخيرا فاعرف منها ما الذى سوف ياكله الناس فى بيتى وهم يبكون حزنا على فقد صديق ظريف كريم .. ثم ينسون هذا كله وهم يشربون النبيذ ويتفرجون على الراقصات .. اننى اعرف ان المائدة سوف ينقصها المرح وسوف ينقصها ذلك الرجل الضخم الذى كان زينة المجالس .. والذى ذاق كل شىء فى دنياه .. وحصل على كل ما يريد .. وحقق كل غاياته من الدنيا .. ولكن الآلهة بخلت عليه أن تكون له معدة اخرى .. ادفنونى .. ضعوا سكر القصب فى فمى .. بل لا اريد قصب السكر وانما اريد عسل النحل فانا لست مريضا . وانما ميت من شدة الشبع واللذه .. انتهيت » !

وكان من عادة الرومان ان يعالجوا مرضاهم بقصب السكر الذى جاءهم من الهند . اما عسل النحل فهو المصدر الوحيد للسكر عندهم .. أو للحلاوة . وكان هذا طعام الشعب . وقد عرف الفراعنة فوائد العسل قبل أن تعرفه كل شعوب العالم. فالفراعنة كانوا يضعون العسل على الدمامل وعلى الجروح . وكانوا يضعونه فى العين . وكانوا يضعونه على البشرة ليجعلها ناعمة . وكانوا يحنطون به الموتى . ولم يكن الفراعنة يعرفون ما الذى سوف يكشفه العلم الحديث بعد ذلك من أن العسل قاتل لاى ميكروب . ولكن الفراعنة اهتدوا الى ذلك من التجربة .

www.alkottob.com

وربما كان شمشون الجبار أول من لاحظ ان اسدا ميتا متعفنا ومع ذلك جاء النحل واقام خلية فى هذا الجسد الكريه الرائحة . ومن هنا كانت الفزورة التى دوخ بها شمشون ابناء غزة عندما قال : ما هو الحى فى الميت . وما هو الحلو فى المر ؟ ولم يعرف احد كيف يجيب على ذلك . ولكن دليلة راحت الى شمشون واغرقته بالقبلات والاحضان . وعرفت تفسير هذا اللغز بعد ان قصت شعره ، الذى هو مصدر قوته ، قال لها : الحى فى الميت ، هو النحل فى جثمان الأسد الميت .. والحلو المر هو العسل فى جسمه المنعفن !

ومضت مئات السنين لنعرف أن عفونة جسم الاسد لا تنتقل الى طعم العسل . فالعسل قاتل لكل ميكروب !

وفى امريكا نجد ان شركات كبرى تنقل النحل بالملايين من حديقة الى حديقة . ليقوم النحل بتلقيح الزهور . ثم تجمعه وتعيده الى مكانه .. وقد عرف الفراعنة ذلك من الوف السنين . فقد كان الفراعنة يأتون بملايين النحل فى احدى السفن . ويقفون عند المدن ويتركون النحل ينطلق الى الحقول والحدائق ، يجمع رحيق الزهور ويلقحها .. ثم ينقلونه فى النيل الى اماكن اخرى وهكذا !

* * *

وعرف الاغريق والرومان والفراعنة ضرورة ذبح الحيوانات تقربا للآلهة . ولكن الرومان ذهبوا الى ابعد من ذلك . فكانوا لا يكتفون بتقديم الذبيح ، وانما يجىء الرجل العراف ويفتح بطن

www.alkottob.com

الحيوان وينظر الى الامعاء . ثم ينظر الى الـــكبد . ومن شكل الامعاء يعرف مستقبل صاحب الذبيحة . ومن حجم الكبد ولونها وشكلها يعرف كم يكون عمر صاحب هذا القربان . وكانت قراءة الامعاء والكبد ، نوعا من قراءة الكف . ومن الغريب ان الرومان تفوقوا فى ذلك . بل ان احد العرافين قال ليوليوس قيصر : اليوم اسوأ يوم فى حياتك . اجلس فى بيتـك سوف تجىء الانباء تحت قدميك .. فلا ترفع سيفك على احد .. ولكن غدا سوف تسمع اسعد نبأ فى حياتك ان شكل كبد الخنزير يؤكد ذلك . ولو كنت ذبحت الخنزير قبل هذا الثور لجاءت اخبارك الســـعيدة اولا . وفى نفس اليوم تآمر بعض الرومان على اعز صديق ليوليوس قيصر ليقتلوه وهو مخمور . وفى اليوم التالى انجبت احدى عشيقاته طفلا ذكرا . وكان هو يتمنى ذلك !

ولا يزال بعض العرافين فى افريقيا يعرفون الطالع من مجـــرد النظر الى ريش الطيور وقد تراكم على الارض .. او عظام الطيور وقد القيت على الارض فجاء ثعلب او ذئب وقلب فيها بارجله ولم يفتها .. ولا يزال العرافون فى هونج كونج يعرفون مستقبلك من قطعة اللحم النيئة الدامية اذا انت قلبتها فى طبق ثم هززت الطبق . وتركتها . من مجرد النظر الى وضعها فى الطبق وشكل الدم حولها يستطيع العراف ان يحدثك عن مستقبلك !

واهتدى الرومان الى ضرورة ان يشغلوا الشعب بشىء . وكان الشعب مشغولا بالخيول . وســباق الخيول وسباق العربات . واقام الرومان « مسارح » لسباق العربات .. واشهرها ملعب

www.alkottob.com

كولسيوم فى روما الذى يتسع لتسعين الف متفرج . وكانت العربات تجرها الخيول ويتفرج عليها الناس ويتعصبون لحصان معين .. أو لأسره معينه .. او لسائق او لصاحب خيول . وكانت تربية الخيول هواية وتجارة الاغنياء . وقد اقيمت للخيول اصطبلات واسعة وفخمة . وانى الاغنياء بمربين للخيول من آسيا .

وكان من المألوف أن يرتدى سائق العربة زيا احمر او اخضر او ازرق .. وينقسم الناس الى مشجعى الاحمر او الاخضر او الازرق واختفى اللون الاخضر . واصبح الناس فريقين متحمسين ويتقاتلون. وتحول الاختلافات على الخيول الى اختلاف فى السياسة وفى الدين. وكانت هذه الخلافات حادة واستهلكتهم وابعدتهم عن السياسة . واستراح الاباطرة الرومان الى ان هذه المسابقات قد استغرقت الناس فشجعوهم على ذلك .

ولكن حدث ان قامت مظاهرات عنيفة فى القسطنطينية بين مشجعى « الفائلة الحمراء » ـــ النطق الصحيح « فالنة » لانها كلمة انجليزية وفرنسية وايطالية والمانية ـــ ومشجعى « الفائلة الزرقاء » . وقرر الامبراطور جوستنيان فى يناير سنة ٥٣٢ ان يعصف بهذا العبث الرياضى السياسى . وجمع فريقا من الطرفين. وهددهم . ولكن الجماهير تظاهرت والتفت حول قصر الامبراطور . وكاد يهرب من المدينة لولا ان زوجته الماكرة ثيودورا طلبت اليه ان يقول للجماهير شيئا . فقال اننى لا اعترض على الفريقين ولكننى احب الفريق الاخضر الذى ليس له مشجعون !

www.alkottob.com

وفرحت الجماهير بانها اغلبيـــة والامبراطور اقليـــة .. وبان الامبراطور ايضا يحب مسابقة الخيول !

ولكن ثيودورا ابنة رجل مشغول ايضا بتربية الخيول ومجنون بمشاهدتها .. ولكن جوستنيان انزل قواته وقتل ثلاثين الفا من مشجعى هذه الرياضة فى يوم واحد !

* * *

ولم يكتف الانسان الذى يريد أن يمزج اللذة بالالم ، والمتعـــة بالقسوة من الفرجة على الخيول . وانما انى بالحيوانات المتوحشة من افريقيا واطلقها بعضها على بعض . والنـــاس يصرخون من الفزع ومن اللذة . اطلق الاسود على النمور . واطلق الذئاب على الكـــلاب . ثم اطلق كل هـــذه الحيـــوانات على المجرمين وعلى المعارضين السياسيين . والناس يصرخون فى متعة ، أو يستمتعون فى صراخ . ويطلبون المزيد ..

واول مصارعة بين الانســـان والحيوان شـــهدتها روما كانت فى سنة ١٨٦ قبل الميلاد . وكان ذلك بعد غزو الرومان لسوريا . ولكن هذه الرياضة الدموية قد أتى بها الرومان من العراق . فقد كانت منتشرة قبل ذلك بمئات السنين .

والى جانب هذه اللذات العنيفة : ذبح الانسان للحيوان ، وذبح الحيوان للانسان ، عاد الرومان الى رياضات هادئة . عادوا الى

www.alkottob.com

عربات الخيول ولكنهم علقوا فيها الجمال . الامبراطور نيرون أول من فعل ذلك . ثم عادوا الى الغزلان وعلقوها فى العربات . والنمور والأسود .. ثم الفيلة .

والاسكندر الاكبر قد شاهد الفيلة فى معاركه . وخصوصا فى الهند . ولاحظ الاسكندر أن الفيلة شكلها مخيف . ولكنها تعوق الحركة . ولذلك أمر جنوده بأن يحتموا فى الفيلة ويطلقوا سهامهم ونبالهم على العدو . ثم اهتدى الاسكندر الى حيلة وذلك بأن يجعل الفيلة فى مواجهه العدو ثم يكويها فتنطلق هائجة تمزق خطوط عدوه وتأخذ معها فيلة اعدائه أيضا . وعدل عن استخدام الفيلة فى المعارك . واكتفى بأن جعلها تنقل الخيام . وكان له فيل مشهور اطلق عليه اسم « اجاكس » . ويقال أن هذا الفيل كان يرفع الاسكندر من الأرض ليحيى جنوده ولم يكن يفعل ذلك لأحد سواه !

والقائد هانيبال عندما أرهب أوروبا بقواته كان يدفع أمامه خمسين فيلا .. ولم يصل منها الى نهر الرون فى فرنسا سوى ثلاثين فيلا ولما عبر بها جبال الالب لم يبق منها سوى ثمانية .. وعندما هبط جبال الالب . لم يبق سوى فيل واحد .. ولكن الرومان كانوا قد أستعدوا له أيضا بعدد من الفيلة .. ثم عدل الجميع عن استخدام الفيلة ونقلوها الى السرك للفرجة عليها ..

* * *

نعود لآخر مرة الى القائد الاكول لوكولوس . فقد سئل فى احدى ولائمه وهو يقلب عينيه ويديه بين الطعام والشراب والثمار ويقول : نحن حقيقة أولاد حيوانات .. فالحيوانات تأكل النباتات

www.alkottob.com

ونحن نأكل الحيوانات .. ثم نحن نموت فى الأرض وعلينـــا تنمو النباتات .. وسوف يجىء يوم تأكلنا الحيوانات حتى نفنى ، فتعيش الحيوانات على النبات حتى تفنى فيأكل بعضها البعض ولا يبقى أحد فى هذه الدنيا .. لماذا ؟ لأن هناك معـــدة تأكل معـــدة أخرى .. والأرض هذه هى أكبر معدة عرفناها !

وكان هـــذا الرجل الذى اشتهر بلقبه صاحب أكبر معـــدة فى التاريخ ، سابقا لعصره ولكل الأطباء وعلماء الحيوان والنبـــات والفلك ، لانه لم يرفع عينه ولا يده عن هذه الحيوانات ؟ !

To: www.al-mostafa.com
www.alkottob.com

وراء جنكيز خان ربع مليون حصان !

لو جاء هؤلاء الوحوش سيرا على الاقدام لاستراحت منهم اوروبا مئات السنين ــ عبارة قالها مؤرخ اغريقى وهو يصف هجرة القبائل البدائية الآسيوية فى القرن الرابع الميلادى . فهذه القبائل قد تركت بلادها متجهة الى اوروبا غربا ، ومتجهة الى الجنوب . وليس معروفا بوضوح لماذا هاجرت هذه القبائل . ولكن المعروف انها قد ركبت الخيول فكانت حركاتها اسرع واخطر .

وقد وصف المؤرخ الاغريقى هؤلاء الآسيويين بأن اشكالهم دميمة . وشعورهم منكوشة . وانهم لا يأكلون الا اللحم النىء وانهم لا يغسلون ايديهم أو وجوههم . ويرون فى منظر الدم دليلا على النعمة وعلى الثراء . ويعيب عليهم انهم يحبون الذهب وانهم من اجل الذهب يبيعون الابن والزوجة والحصان ، وربما كان هذا التقديس للذهب هو الشىء الوحيد الذى يربطهم ببقية الانسانية ! . .

www.alkottob.com

وهى صورة كاريكاتورية . والحقيقة ان هذه القبائل الاسيويه راكبة الخيول ، عندها قدرات هائلة على القتال وعندها شجاعة . وعندها ترفها الفنى والادبى وطقوسها الدينية .. وهؤلاء « الوحوش » أكثر حضارة من « البرابرة » الاوربيين فى ذلك الوقت.

وبسبب هذه الخيول التى لديهم اقاموا امبراطوريتهم بسرعة وجعلوها واسعة اما هذه الخيول التى ركبوها واقاموا عليها قوتهم وعروشهم فهى متوسطة الحجم . صغيرة الراس طويلة الشعر ، وظهورها سريعة الانحدار . وسيقانها قصيرة . ولا تحتاج هذه الخيول الى ماء كثير اذا سارت فى الصحراء . وهؤلاء « الوحوش » الاسيويون ككل الرعاة يعيشون على اللبن والنباتات والثمار ولا ياكلون اللحم . فاللحم هو الخيول . والخيول قوتهم فى القتال والهرب .

وفى ذلك الوقت سقطت الامبراطورية الرومانية القوية . لماذا ؟ يقال ان الخيول رئست هذه الامبراطورية فسقطت . وهذه عبارة مبالغ فيها الى حد كبير . فسقوط الامبراطورية كان لاسباب كثيرة. ولكن هذه الخيول الزاحفة بمئات الالوف قد عجلت بانهيار الامبراطورية الرومانية . لان هذه « القوات المحمولة » على اربع والقادمة من قلب آسيا هى التى هدمت الامبراطورية الرومانية . ولم يكن الرومان فى ذلك الوقت قادرون على مواجهة الزحف الاسيوى كما ان الرومان كانوا يجهلون او يتجاهلون قدرة الخيول ، والفرسان والفروسية . فالجيش الرومانى به فارس واحد لكل عشرين جنديا .. أو به حصان واحد ابيض يركبه القائد العام ! ولذلك فالجيوش الرومانية ابطأ فى الحركة وفى الهجوم وفى الانسحاب .

وقد وجدنا فى التاريخ ان الفرسان الجرمان يطلقون على انفسهم كلمة « رينر » ومعناها : راكب .. فراكب الحصان هو الفارس . وكان الرومان يسمون راكب الحصان « اكويس » — وهى كلمة

www.alkottob.com

لاتينية معناها راكب . ولكن ليس كل من ركب الحصان فارسا . ولذلك كان الاسيويون « فرسانا » وكان الاوربيون « ركابا » فقط !

وفى اوربا فى ذلك الوقت كانوا يطلقون اسم الفارس على كل من يركب الحصان او يملكه . ولم يكن يملك الخيول الا الاغنياء او النبلاء . وكان الرجل الحر هو الذى يركب الحصان . فهو يستمد حريته من قدرة حصانه على الحركة والجرى والهرب .. ومن التعبيرات الشائعة فى ذلك الوقت : اركب حصانك .. اليس لك حصان ؟ لو كان عندى حصان ما رضيت بهذه الحياة دقيقة واحدة ! ركب فلان اسرع خيوله وهرب ..

وجاءت القوات الاسيوية الراكبة واسقطت الامبراطورية الرومانية الواقفة او الماشية او الجالسة !

وظل الحصان مصدر القوة العسكرية فى اوربا الف عام بعد ذلك . وكان سلاح الفرسان هو السلاح الافضل . وكان سلاح ابناء الذوات والنبلاء . فالجندى يرتدى بدلته المدرعة ويركب حصانه .. والبدلة غالية والحصان اغلى والموت بعيد عن هذا الفارس . ولا يستطيع احد ان يحمى نفسه هكذا الا اذا كان غنيا . فالمشاة فقراء والفرسان اغنياء !

ولم تكن الخيول الاوربية الا حيوانات غليظة ضخمة . خطواتها ثقيلة . واشكالها دميمة .. ولكن اوربا عرفت بعد ذلك أن تستورد هذه الكائنات الجميلة النبيلة من شمال افريقيا ومن شبه الجزيرة العربية . ومن منطقة نجد . وظهرت الخيول العربية بأجسامها الممدودة الانسيابية ورشاقتها وروعتها .. ولم يعرف الاوربيون هذه الكائنات الرائعة الا بعد أن اتصلوا بالعرب .. وقرأوا عن عشق العرب لهذه الخيول .. بل ان امير

www.alkottob.com

الشعراء الانجليز روبرت جريفز يؤمن بأن الادب العربى لم يعرف معنى « الفروسية » الا من العرب . فالعرب هم أول من اهتدى الى أن الفارس ليس من يركب الحصان . وانما هو الذى له شجاعة الحصان ونبله وكرمه واحترامه للعواطف الانسانية . والفارس هو الرجل الشهم . أو العاشق الذى يضحى بحياته من اجل محبوبته . وهو الذى يرى أن الحياة هى الحب . والحب هو الحياة . والحياة هى ان يموت الفارس من أجل المحبوبة . يكفى أن تراه يتعذب فتسقط على جثمانه دمعة واحدة . بل ان دمعة واحدة كثيرة . لانه يرضى بأقل من ذلك .

ويقول روبرت جريفز ايضا : ان أوربا لم تعرف معنى الحب العذرى أو الحب العفيف أو الحب « الافلاطونى » الا من العرب . فعند العرب قبيلة اسمها قبيلة « بنى عذرة » . هذه القبيلة قد نذرت نفسها للحب الشريف . وهذه هى الفروسية .

ويقول روبرت جريفز ايضا : ان الشعراء المتجولين « الطروبادور » أى شعراء الطرب — لم يتعلموا فن الصعلكة النبيلة الا من الادب العربى . فالشاعر العربى لا يكتفى بأن يتعذب من أجل المحبوبة ، وانما يروح ينقل عذابه للآخرين . فيتجول من مكان الى مكان ويروى للناس كيف انه لم ير الا ثوب محبوبته .. طرف ثوبها .. وهو لا يفضحها وانما هو يتغنى بها ويقيم لها حفلات التكريم .. فهو محطة اذاعية .. هو فيلم .. هو اسطوانة تدور فى كل مكان . هؤلاء الشعراء كانوا فرسانا ، يركبون الخيول .. وفيهم اخلاق الخيول : شموخ وجمال وصمود واستعداد للتضحية !

وفى التاريخ الاسلامى نجد الرسول عليه السلام كان يركب الناقة وكان يركب الحصان . وكان — ككل العرب — يدعو الى

www.alkottob.com

حب الخيل والى اقتنائها . وهو الذى قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » . وكان يدعو ابناء المسلمين الى ركوب الخيل .. وعندما أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى تقول كتب السيرة انه ركب « البراق » وهو حيوان متوسط فى حجمه بين الحصان والحمار .. وفى المكان الذى وقف فيه البراق اقام عمر مسجده فى القدس . ويقول اليهود ان هذا المسجد اقيم فوق حطام معبد سليمان ..

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وردت فيها كلمة «الخيل» .وهى ترد بمناسبة الاستعداد للقتال وضرورة محاربة العدو .والقرآن الكريم يقول : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . » وفى القرآن الكريم سور تحمل اسماء الحيوانات والحشرات والخيول : البقرة والنحل والنمل والانعام . أما سورة « العاديات » فالمقصود بها « الخيل » والسورة تقول : «والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا .فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا . » وهذه الآيات تصف الخيل فى حركتها واثارتها للتراب وسط القوات المعادية . والله فى هذه السورة يقسم بهذه المخلوقات الجميلة . وفى ذلك اقصى درجات التكريم ..

والعربى يستمد نبله وقوته من هذا الحيوان المتسق القوام . ويستمد أيضا كبرياءه . وقد وصف العرب حاتم الطائى بانه اكرم العرب لانه ذبح حصانه لاحد ضيوفه !

وعمر بن الخطاب عندما دخل القدس لم يشأ ان يركب حصانا وانما ركب ناقة وعلى هذه الناقة وضع طعامه من الماء والتمر والقمح . ودخل القدس حانى الراس . ولم يركب حصانا يتبختر به كما يفعل الفرسان أو كما يفعل الغزاة المنتصرون !

www.alkottob.com

والتاريخ يسجل للعرب انتصاراتهم الهائلة شرقا وغربا بقوات صغيرة وخيول محدودة . وقد حاول الفرس أن يصدوا العرب مستخدمين الخيول . ولكنهم فشلوا . فقد كانت عندهم الخيول، ولم تكن لديهم الفروسية — أى روح الشجاعة والاستعداد للموت فى سبيل الله ! ودخل العرب اسبانيا بجيش متواضع : ٣٠٠ فارس عربى وثلاثة آلاف من قوات البربر !

وبعد ذلك بخمسة قرون جاء جيش من الشرق محمولا على الخيول ومزق اوربا كلها ، وداس مقدساتها وفتح عيون العرب على ان هناك حضارة اخرى .. او شعوبا اخرى تستطيع أن تفعل ما عجزت عنه الحضارة الاوربية المريضة المتداعية . كان ذلك جيش جنكيز خان .

وقد وصف الرحالة الايطالى ماركو بولو جيش جنكيز خان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بانه كان يتحرك فوق ربع مليون حصان !

واصبح من المألوف فى اوروبا فى ذلك الوقت أن الرجل النبيل هو الذى يملك قطعة من الارض وحصانا . أو يملك حصانا دون ان يملك ارضا أو يملك الحصان والبدلة المدرعة دون ان يكون جنديا فى اى جيش . وانما يكفى أن يكون هذا « عاليا » فوق حصان ، و « منيعا » وراء بدلة من حديد .. وهو بكل مقاييس العصر يعتبر رجلا محظوظا !

وعرفت أوربا تربية الخيول . واستخراج السلالات الجيدة منها . لان الخيول التى هاجرت الى أوربا من الشمال فى العصور الجليدية كانت صغيرة هزيلة . او قبيحة التكوين . وقد احس الاوربيون بذلك اثناء الحروب الصليبية . لم تكن لديهم هذه الخيول

www.alkottob.com

العربية الرائعة . وحتى عندما انسحب الصليبيون من الشـــرق كانوا يحملون امتعتهم على ظهور الابقار والماعز والخنازير !

والخيول حتى ذلك الوقت كانت مظهرا من مظـــاهر الثراء والقوة . ولكن اوربا لم تعرف « الفروسية » او رياضـــة ركوب الخيول . واذا حدث ان اراد بعض الفرسان ان يتريض جاءت هذه الرياضة عنيفة دموية . فيلتقى الفرسان ويتحاربون .وتكون النهاية دموية مميتة . ان الملك هنرى الثانى ملك فرنسا قد سقط من فوق حصانه ميتا سنة ١٥٥٩ . ولم يكن ذلك فى الحرب وانما كان فى معركة مع احد الفرسان . ولم يكن ذلك الا على ســـبيل اللهو !

ولكن رجلا فرنسيا اسمه جيوفروا دى بروى هو اول من وضع لرياضة الخيل او للفروسية قواعد واصولا وطلب من كل الفرسان أن يحترموها وكانت هذه القواعد تؤدى الى الابقاء على حيـــاة الفارس والحصان . وان تكون استعراضـــا للخفـــة والسرعة والمناورة دون دماء !

والتاريخ الذى كتبته الخيول فى حياة الانسان والشعوب كلها طويل جدا ـــ انه يشبه تاريخ الدبابة والمدرعات والطائرات . فالخيول هى دبابات وطائرات الانسان من الوف السنين !

واذا كان الانسان قد استخدم الخيول فى الرعى وفى الصيد ،فانه استعان ايضا بطائر غريب يساعده على ذلك . فالصياد كان يركب حصانه ويحمل على ذراعه طائرا هو « الصقر » ثم يطلق الصقر على الفريسة ويجرى وراءه . وبعد لحظات يكون الصقر قد اوقف له الفريسة . فالصقر ينطلق وينقض بسرعة على الطيور الاخرى او على الارانب او على الغزلان . ويقف على رأسها ويرفرف بجناحيه

www.alkottob.com

فيجعلها عاجزة عن الرؤية . أو يضربها فى رأسها أو يفقأ عينيها .. حتى يجيء الصياد ويمسك الفريسة.ولا تزال هذه الصقور وسيلة من وسائل الصيد فى مناطق شبه الجزيرة العربية . فبدلا من ان يطلق الصياد سهامه ونباله ورصاصه على الفريسة ، فانه يطلق الصقر لكى يمسكها وهى حية دون ان يشوه مكانا واحدا من جسمها.

وفى العصور الوسطى كانوا يستخدمون الصقور لاصطياد الخنازير البرية . ففى فرنسا ، وهى كبرى الدول الزراعية فى اوربا، قد ارهقتها حروب المائة عام حتى لم يبق لدى الناس ما ياكلونه من الخضراوات والفواكه والحيوانات . وحتى أصبح من الضرورى ان يلتزم صاحب البيت أو صاحب القصر باطعام خدمه وحاشيته والا فلن يجد أحدا يعمل لديه . ففى سنة ١٤٣٣ صدر قانون يقول: وللخادم أن ياكل اللحم مرتين فى الاسبوع وان يشرب زجاجة نبيذ . وفى أيام الصوم يجب ان يجد السمك .

اما الاغنياء فكانوا يضعون على موائدهم كل ما لا يجده الفقراء من لحوم : الخنزير والبقر والاوز والبجع والشواء والمسلوق وكانوا ياكلون الطاووس أيضا (وقد فعل ذلك شاه ايران عندما اقام مهرجانه التاريخى بمناسبة مرور خمسة وعشرين قرنا على تاسيس الملك كوروش للدولة الفارسية ..)

ولكن طائرا واحدا نجا من الموت : الصقر .

ويقال ان المؤرخ الاغريقى كتسياس وكان طبيبا خاصا للملك الفارسى ارتكسركس فى القرن الرابع قبل الميلاد ، هو اول من نقل الصقر الى اوربا . واول من استخدمه فى الصيد . ولكن هذه العادة لم تنتشر فى اوربا الا بعد أن هاجر الاسيويون الى اوربا . وعرف الغرب ان الصقور يمكن استخدامها فى صيد الذئاب التى تهدد قطعان الاغنام والابقار ..

www.alkottob.com

وفى احدى لوحات لويس السادس عشر نجده واقفا وعلى ذراعه اليسرى وقف الصقر شامخا برأسه .

كما أن الملك فريدريش الثانى ، لم يكتف بتربية هذه الصقور الصيادة ، وانما اصدر كتابا فى تربية الصقور وتعليمها . كتابه اسمه « فن الصيد بالطيور » . وفى الكتاب يحدث القارىء عن اخلاقيات هذا الطائر . وكيف يأكل وكيف يشرب . وكيف يجب تجويعه قبل اطلاقه على الفريسة . ثم مكافأته بعد ذلك بأن يعطى القلب والكبد وعينى الفريسة . والذى يقرأ كتاب الامبراطور يشعر بأن تدريب الصقور الصيادة عمل شاق . ولكنه من انبل الاعمال فى ذلك الوقت .

والفراعنة أنفسهم كانوا يرمزون بالصقر — حورس — الى السماء .. او الى الفضاء الخارجى . ويرون أن هذا الصقر له عينان هما : الشمس والقمر . وكان هذا الطائر فى اعلى مراتب القداسة عندهم ..

وحيوان آخر رافق الانسان سنوات طويلة . او كان اول من صادقة ؟ الكلب . وكان الانسان يستخدم الكلب فى حراسة الأغنام، ولم يكن الكلب حارسا لها تماما ، وانما كان يحميها من الذئاب والثعالب . وكان الكلب حيوانا محتقرا رغم احساس الانسان بفائدته . وكان من عادة الاغنياء أن يضعوا كلابهم فى غرف الخدم.

ولكن فى العصور الوسطى ظهرت الكلاب فى صور النبلاء والملوك . ثم ظهرت الكلاب فى لوحاتهم الفنية . وظهرت أنواع نادرة من الكلاب . وكان الكلب يستمد « مكانته » هو ايضا من مكانة سيده . بل أن الفنان كان يعكس طبيعة السيد على طبيعة الكلب. فاذا كان السيد مثل « فيليب الطبيب » دوق بورجانديا ظهر الكلب هادئا جالسا عند قدمى سيده ، واذا كان السيد شريرا مثل «شارل

www.alkottob.com

السيىء » ملك مقاطعة نفارة الاسبانية ظهر الكلب شرسا يقضم الطعام عند قدمى سيده ..

وظهرت حيوانات وطيور اخرى كثيرة فى اللوحات الفنية بل وفى النقوش القديمة . ففى احدى مقابر المملكة الوسطى الفرعونية نجد نقشا به تسعة وعشرون نوعا من الطيور .. وفى مقبرة الكاتب المصرى حور محب فى عهد تحتمس الرابع نجد نقوشا لطيور كثيرة .. كما ظهرت الحيوانات المفترسة على دروع الجنود رمزا للقوة والمنعة . بل لا يزال « وحيد القرن » منقوشا مع عظيم الاحترام على الاسلحة الملكية البريطانية . وكان القدماء يتصورون أن وحيد القرن حيوان نادر او حيوان خرافى . فالمؤرخ الرومانى بلينى كان يعتقد وكذلك الفيلسوف الاغريقى ارسطو أن وحيد القرن لا وجود له.

ولما نقلت التوراة من اللغة العبرية الى اللغة اليونانية ترجمت الكلمة العبرية « ريم » ومعناها : ابقار الى الكلمة اليونانية « مونوكيروس » ومعناها : وحيد القرن .

وقد استخدم القدماء اسم « وحيد القرن » للدلالة على العفة والعذرية وقوة الفضيلة .وذهب القدماء الى ابعد من ذلك فتصوروا ان قرن وحيد القرن هذا يحقق المعجزات . وان الذى يحتفظ به تحدث له البركات .. وان الذى يسحق القرن ويشربه مع النبيذ تكون له قوة جنسية هائلة .

عجيب امر الانسان : انه يبدأ بتقديس الحيوانات ثم تكديسه ثم القضاء عليه ، ثم الحزن عليه والعمل على انقاذه وتربيته والبحث عن شىء جديد يقدسه تمهيدا للقضاء عليه .. وهذا ما فعله بنفسه ايضا !

www.alkottob.com

خنازير كولمبوس !
ملأت العالم الجديد

مع اكتشاف امريكا ظهرت حيوانات وطيور جديدة ، فالخنازير الثمانية التي حملها كولمبوس معه قد اصبحت الآن مئات الملايين في العالم الجديد ، ولم يكن اكتشاف امريكا عملا بارعا بالصدفة ، ولكنه نتيجة لمحاولات ومغامرات استغرقت مئات السنين ..

ويجب ان نذكر دائما أن الصيادين هم الذين لمسوا كل شواطىء العالم الجديد . فالصيادون من ابناء الشمال هم الذين اكتشفوا « جرينلاند » اى الارض الخضراء ولم تكن الارض خضراء عندما اهتدى اليها « اريك الأحمر » وانما كانت جرداء جليدية صحراوية مميتة . ولكنه اختار لها هذا الاسم ليستدرج الناس الى الحياة فيها . وكان هو وابنه اول من اقام فيها . وبعد ذلك تكاثر المهاجرون جيلا بعد جيل ..

يقول « اريك الأحمر » فى مذكراته : كنت اطلب من ابنى أن يقوم بدور الكلب واحيانا بدور الدب ، لنشعر نحن أن هناك كائنات اخرى ترانا او تخافنا او تعمل لنا اى حساب ! ..

www.alkottob.com

ويقال ان « أريك الأحمر » هذا استطاع أن يصل فى مغامراته البحرية الى شواطىء أمريكا . والى جزيرة « رود » بالذات . ولكنه يوم اهتدى الى هذا المكان النائى لم يكن يعرف بالضبط ، ما الذى يراه عن بعد ..

وبعد ذلك توالت مغامرات ابناء جنوه الايطالية ، والبحارة الاسبان والبرتغاليين . كلهم اتجهوا عبر المحيط الأطلسى . لماذا ؟ لأن لديهم معلومات ما ، بأن شيئا ما ، يوجد فى الناحية الاخرى .. ما هو هذا الشىء ؟ يقال : انها بلاد التوابل : بلاد الهند . أو بلاد الحرير : بلاد الصين .

واكتشفوا جزر الكنارى وجزر مادييرا وجزر الأزورس ..
ومن الملاحظ أن كل الجزر التى اكتشفت قد حملت اما أسماء القديسين أو اسماء الطيور . فقد كانت الطيور بألوانها الزاهية الصارخة واصواتها المغردة هى اهم ما راى وما سمع الأوربيون. فجزر الكنارى نسبة لطائر الكناريا .. وجزر أزروس أيضا . فالكلمة البرتغالية « اسورث » معناها : الصقور . والجزيرة مليئة بالصقور .

وكانت هذه الطيور تستقبل سفن المغامرين من بعيد ، وتحلق حولها فى كبرياء . وقد فتن الاوربيون بالببغاء . وانتقل هذا الطائر الى ادبهم وشعرهم واغانيهم وخرافاتهم ايضا .

واول ما واجه الأوربيين المكتشفين أن هذه الجزيرة فقيرة . وان اهلها بدائيون متخلفون تماما.ولذلك احتاج الأوروبيون الى أن يأتوا معهم بالطعام من اللحوم . فنقلوا الحيوانات الأليفة الى هذه الجزر . ونشروها . وامتلأت بها الدنيا الجديدة . وقد أدى وجود بعض هذه الحيوانات الى ظواهر غريبة لم تكن فى حسابهم .

www.alkottob.com

فمثلا عندما نقلوا الارانب الى جزيرة اسمها « الجزيرة المقدسة » تكاثرت بمئات الالوف فى سنوات قليلة ، حتى اكلت ما فى الجزيرة من اعشـــاب ، بل انها كانت تتســلق الاشجار وتاكل اوراقهـــا الخضراء ..

يقول بعض المؤرخين : ان الذى ينظر الى الجزيرة بعينـــه من بعيد يجد سطحها يتحرك .. يعلو ويهبط ، كان امواج المحيط قد استقرت فوقها . فاذا اقترب منها اكثر وجد أن الذى يتحرك هو موجات من الارانب !

* * *

نفس التجربة حدثت عندما اكتشفت استراليا . كانت الارانب قد اكلت المزارع فاتوا لها بالقطط . فاكلت الارانب واصبحت القطط متوحشة . فاتوا لها بالكلاب . فتحولت الكلاب الى ذئاب متوحشة ويقال انهم فى استراليا قضوا على الكلاب التى قضت على القطط التى قضت على الارانب ، فانتشرت الفئران بصورة شرسة .. وفى الهند عندهم مشكلة مماثلة . ففى الهنـــد يحتاجون الى جلود الثعابين فيصيدونها . وكانت الثعـــابين تاكل الفئران التى تاكل محصول القمح والذرة . ولذلك اصبح ممنوعا صيد الافاعى لانها تقضى على الفئران ، وبذلك ينجو القمح والذرة ؟ .

والمستعمرون الاوروبيون الجدد لهذه الجزر او لهـــذه الاراضى المكتشفة يحتاجون الى ضمان طعـــامهم . والى ضرورة معـــرفة الحيوانات والطيور الجديدة.وان كان فى الامكان ذبحها او تصديرها الى اوربا .. وبعـــد ذلك معرفة حدود الارض الجـــديدة والبحث عما فيها من ثروات طبيعية .

www.alkottob.com

واذا كانت الأرانب هى أول المهاجرين الاوربيين الى العـــالم الجديد ، فقد جاءت بعد الارانب الابقار والأغنام والماعز والخنازير والدواجن وكذلك البذور .

وكولمبوس عندما اكتشف امريكا سنة ١٤٩٢ كان يحمل فى سفنه بعض اللحوم والاســـماك الجافة .. ولكن رحلة كولمبوس الاولى كانت استطلاعية فقط وبعد ذلك جاءت رحلته الثانية الباهرة ويقول كولمبوس فى مذكراته بتاريخ ٩ اكتوبر سنة ١٤٩٢ اى بعد ٣١ يوما من السفر من جزر الكناري : ظللنا طول الليـــل نسمع اجنحـــة الطيور . ولا نعرف أين نحن بالضبط . ولكنى مؤمن بأن الأرض قريبة جدا »

وبعد ثلاثة ايام توقف كولمبوس عند جزيرة هى جنة الطيور . كل شيء فيها غريب عجيب . اشجارها وارضها وثمارها . واهم من ذلك كله عدد لا نهائى من الببغاوات . وقد حمل منها عددا كبيرا الى اوربا . ووجد بالصدفة بعض الاحجار اللامعة على الشاطيء فظن انها ذهب . ولم تكن كذلك . وايقن انه قد اهتدى الى الهند. وكولمبوس هو الذى أطلق خنازيره فى الدنيـــا الجديدة .. وهربت الخنازير الى الغابات واختفت منه .. وبعد مئات السنين أصبحت الوف الملايين .. طعاما سائغا للرجل الاوروبى والأمريكى ..

* * *

ومما حمله الاوربيون الى العالم الجديد : الخيول .

وكانوا يركبون الخيول ويمسكون السهام والنبال ويطلقون النار على الهنود الحمر . فخافوا اول الامر . وبعد ذلك لم تعـــد هذه الخيول تخيفهم وكانوا يظنون ان الحصان وراكبه كائن واحـــد .

www.alkottob.com

ولما تشجع الهنود الحمر واطلقوا سهامهم على الاوربيين سقط منهم الكثيرون على الارض . واندهش الهنود الحمر كيف أن هذا الحيوان ـــ اى الحصان وراكبه ـــ يمكن أن ينشطر نصفين بهذه السهولة !

(وعندما اكتشف كوك ايضا جزر هاواى كان يضع يديه فى جيب البنطلون فكان اهل هاواى يعجبون لذلك اذ كيف يخفى يديه فى بطنه ويخرجها . ولما راح يدخن السجائر ، ادهشهم كيف أن النار فى احشائه ولا يموت .. ولما قتلوا رجاله البيض عزموا لذلك . ولكنهم تشجعوا حتى قتلوا كوك نفسه) .

والشاعرة المكسيكية الراهبة خوانا كروث تقول سنة ١٦٨٨ عن الاوربيين الذين غزوا بلادها بالحديد والنار : من هؤلاءالوحوش الذين جاءوا عبر المحيط يدوسون ارضى المقدسة ؟ ويذبحون اجدادى وينهشون لحمهم ، وينهبون ثرواتهم بلا سبب ؟ .. ان اجدادى متحضرون اما هؤلاء القادمون من وراء البحر فوحوش بربرية .. !

واهتدى الانسان الى حيلة اخرى غير استخدام الخيول ، استعملوا الكلاب المدربة . واخذوا يطلقونها على قبائل الانكاس. وكانت الكلاب تمسك بهم وتعوقهم لتصيبهم نيران الاسبان .وعرف الانكاس حيلا اخرى جديدة . كان الواحد منهم يتغطى بمواد مسمومة فاذا هجم عليه الكلب مات لتوه . أما لماذا لم يمت الانكاس من السموم التى تنفذ الى ما تحت الجلد ، فذلك ما لم يعرفه أحد بعد .

ويصف لنا المؤرخون الاسبان كيف راوا قصر الملك مونتزوما الثانى « ملك المكسيك » قال احد المؤرخين : وكان قصره قطعة

www.alkottob.com

من الجحيم . تعيش الأسود والنمور فيه.وترى الطيور المسارخة. والطيور المغردة والطيور الجارحة .. وفيه اخطر من هذا كله : أنواع عجيبة من الأفاعى التى لها ريش . وكانوا يضعون الأفاعى فى الصناديق ثم يلقون اليها بلحوم الكلاب وكان من عادة الملك اذا زاره الضيوف أو الأوربيون الجدد ، ان يقدم لهم الطعام وسط هذه الوحوش . وكان حريصا على أن يجعلها جائعة فتعوى وتنبح وتصرخ ـــ أما الثعابين فيكون لها فحيح فريب رهيب .

وفى الرسائل التى وجهها كولمبوس الى الملوك الكاثوليك فى اوربا سنة ١٥٠٣ ، وكان فى ذلك الوقت فى جامايكا يقول : ان فى هـذه البلاد اسودا ونمورا ضخمة فى حجم الانسان نفسه .

وفى هذا العالم الجديد لا احد يشرب اللبن او يذوق لحم الحيوانات ـــ الاغنياء والنبلاء ورجال الدين فقط ـــ أما بقية الناس فلا قدرة لهم على هذا الترف العظيم .

* * *

وعندما استولى البرتغاليون على البرازيل اطلقوا عليها اسم أرض الببغاوات . وان كانت كلمة « البرازيل » فى اللغة البرتغالية تعنى نوعا من الخشب الثقيل الذى يخرجون منه الصبغة الحمراء. ولكنهم كانوا يسمون هذه البلاد بجنة الطيور . وكان من عادة البرتغاليين ان يدرسوا ويسجلوا ملاحظاتهم على كل الطيور والحيوانات والنباتات التى تلفت عيونهم . بينما كان الأسبان مشغولين فقط بالبحث عن الذهب .

وعلى الرغم من أن الثمار فى العالم الجديد كبيرة الحجم ، فان الحيوانات كانت صغيرة الحجم . وهذا العالم الجديد لم يعرف الفيل الهندى الحبشى ولم يعرف التمساح النيلى الكبير . وانما فى العالم الجديد تماسيح صغيرة . ولم يكن يضايق المستعمرين الجدد سوى الحشرات التى تلسع . وسوى الأفاعى التى تمص دمهم فى الليل .

www.alkottob.com

اما الهنود الحمر فهم يأكلون كل الحيوانات فيما عدا حيوان آكل النمـــل .

وبعض القبائل تاكل الانسان نفسه وعندها اسباب كثيرة لذلك. اما ان يكون ذلك بدافع الانتقام .. او بدافع المحبة .. فنجد القبيلة تاكل شخصـــا من قبيلة اخـــرى ، ومعنى ذلك ان دمها واحد . وجسمها واحد . والروح واحدة . وتقام لذلك طقوس هائلةبالطبول والرقص والبخور .

من عادة هذه القبائل اذا اسرت عدوا ان تكرمه فتعطيه الطعام الذى يجعله اسمن . بل ان بعض القبـــائل عنـــدما كانت تاسر الاوربيين كانت تحبسهم وتقدم لهم افضل الطعام وتقدم لهم بنـــات القبيلة ليكون زواج وأطفال . اما الذكور ـــ فلانهم اولاد الرجل ـــ فياكلونهم . اما الاناث ـــ فلانهن بنات المراة ـــ فلا ياكلهن احد . ثم لابد من اكل الذكر حتى لا ينتقم لوالده .

وقد روى للعالم كله مثل هذه القصص رجل اوربى وقع فى الاسر. ورفضوا ان ياكلوه رغم ما قـــدموا له من طعام ، لانه كان جلدا على عظم !

وقاوم الأوروبيون هذه الوحشـــية ، فاصدروا القوانـــين التى لا تحرم قتل الانســـان ، وانما تحرم اكله . .وبينما صدرت هـــذه القوانين كان بعض الأوروبيين يبيع للهنود الحمر مسكاكين اكبر لكى يتمكنوا من ذبح الانسان بسهولة !

ولم تتوقف هذه الاعمـــال الوحشية الا عندما انتقلت الابقـــار والجواميس والاغنـــام من اوروبا لكى تكون فـــداء للانسان من الانسان .. فماتت هذه الحيوانات من اجل ان يعيش الانســـان يربيها ويطعمها ويذبحها بعد ذلك !

www.alkottob.com

كل عصر لخرافات خاصة!

كانت الملكة كاترين دمدتيشى شديدة القلق . وهذا طبيعى جدا ، فهذه ليلة زفافها . وكانت اذا نظرت الى احدى الوصيفات تسأل عن شىء ، ترد عليها الوصيفة وهى تضحك او وهى تغمز بعينها ، وفى كثير من الاحيان كانت الملكة تسأل قائلة : هل جاء الخاتم الـ ... وقبل ان تكمل سؤالها يجىء الرد : نعم جاء الخاتم ذو الاربعين فصـــا ..

وتسأل الملكة : والصندوق الـ ..

فترد وصيفة اخرى : جاء الصندوق البيضاوى وبه كل المجوهرات حتى الخنجر الذهبى المرصع بالماس .

وتقول الملكة : وهذا الذى يسمونه « عطر الحياة الابدية » هل هو أيضـــا .. ؟

— نعم يا مولاتى جاء وبكميات كبيرة تكفى لاسعاد الف عروس فى الف ليلة .. !

— و —

www.alkottob.com

ـــ نعم جاء وهو الآن تحت المخدة ..

ـــ و ..

ـــ نعم يا مولاتى .. وانا التى وضعته بنفسى فى كاس الشمبانيا التى سوف يشربها الملك قبل أن يدخل الى غرفتك .. اطمئنى فقد اعددنا لسعادتكما الليلة كل شيء ..

ـــ وهل نسيت ذلك الذى اهدته لى الامبراطورة لاتناوله قبل النوم بلحظات .

ـــ موجود يا مولاتى ..

ولم تكن الملكة كاترين دمديتشى تريد أن تعرف كل هذه الاحتياطات من أجل ليلة العمر مع أحد ملوك فرنسا . وانما كانت قلقة على شيء آخر هام جدا .. ولكنها تخشى أن تبوح باسمه امام الوصيفات الايطاليات والفرنسيات .. واخيرا تشجعت وقالت : هل جاء الكاردينال .. ؟

وصرخت الوصيفات فى نفس واحد : طبعا يا مولاتى ..

وظهرت السعادة على وجه الملكة واحس الجميع أن هذا الذى جاء اهم من كل شيء سمعته حتى الآن . اما هذا الكاردينال فقد حمل رسالة خاصة من عمها كليمنت السابع بابا الفاتيكان .

وقد وعدها بهذه الهدية قبل زواجها . ولما حضر الكاردينال ادخلوه فورا للغرفة الصغيرة المجاورة لسرير الملكة . ورفع الكاردينال عباءته القرمزية ووضع علبة ذهبية كبيرة ، وفى داخل العلبة الذهبية مسحوق نادر .

www.alkottob.com

ان هذا المسحوق هو معالجة طبيسة لجزء من قرن خلعوه من رأس « وحيد القرن » الذى يبلغ من العمر سنتين ويومين !

هذا المسحوق مهم جدا . فالملكة اذا احست بالسم قد وضعوه لها فى طعامها ، فانهسا بسرعة تضع المسحوق على شرابهسا أو طعامها . وهذا المسحوق قادر على أن يمتص السم وتعيش الملكة.

* * *

وكان ذلك فى القرن السادس عشر فأوربا كلها تؤمن بأن قسرن وحيد القرن قادر على شفاء الناس من أكثر الأمراض خطورة . ولذلك فهو هدية من بابا روما — وهى هدية افلى من كل الهدايا وأهم .. !

وحيوانات أخرى سيطرت على الحياة الطبية فى أوروبا بعسد اكتشاف أمريكا . أكثر هذه الحيوانات خرافية .

ومن الملاحظ أن الانسان الأوروبى اتجه الى أمركا ، بينمسا الحيوانات الأمريكية قد اتجهت الى أوربا . واذا كان كولمبوس قد اهدى أمريكا ثمسانية من الخنازير ، فان أمريكا قسد أعادت الى الخنازير الأوروبية طعامها ، بل ان أمريكا هى التى انقذت خنازير أوربا .. فعندما كانت هناك أزمة اللحوم أو الطعام عموما فى أوربا، انتقلت الذرة الى أوربا ، ولم تكن تعرفها قط . وانتقل سكر القصب ايضا . صحيح أن أوربا هى التى نقلت قصب السكر الى أمريكا ، ولكن أمريكا هى التى صنعت سكر القصب بكميات هائلة،مستخدمة العبيد من أفريقيا فى هذه الصناعة الجديدة . وقد أدى ظهور السكر فى أوربا الى كساد عسل النحل والنحل نفسه . وهذه هى أول مرة

www.alkottob.com

فى التاريخ نجد السكر الذى هو ناتج نباتى يطرد العسل الذى هو ناتج حيوانى .

ثم ان الذرة والبطاطس وغيرهما من الاطعمة قد ادت الى انقاذ حياة الملايين من الطيور والحيوانات التى اعتاد النـــاس فى اوربا ان يأكلوها . ولم تكن البطاطس هذه معـــروفة تماما فى اوربا .. وقد رأينا فى القرن السابع عشر الأمراء يتهادون بالبطاطس على انها شىء غريب عجيب . بل ان بعض الاطباء فى ذلك الوقت قـــد افتى بتحريم اكل البطاطس لانها تؤدى الى الامراض الخبيثة !

وظهر الديك الرومى فى اوربا ، قادما من امريكا بكميات كثيرة. وربما قيل ان الديك الرومى ليس جـــديدا على اوربا ، فالانجليز يسمونه الديك التركى . والانجليز عرفوه عن طريق الشرق الاوسط. ولكن النـــوع الذى جاء من امريكا كان اضخم واكثر تنوعا ، وكان لظهور الديك الرومى اثره الكبير فى الحياة الاوربية .. فى حفلات الأمراء والنبلاء والملوك . ومن يرجع الى ادب البـــلاط فى اوربا يجد الديك الرومى صاحب الصفحات الاولى والعبارات الاولى على السنة الرجال والنساء . كان يقال مثلا : جميـــل الديك الرومى واجمل منه ان ينظر اليه الانسان فى عينيك !

يقال هذا الكلام عادة لفتاة جميلة . ويكون رد الفعل التقليدى ان تحنى الجميلة رأسها ، وان يتقدم صاحب الكلام ويحنى رأســـه على يديها ويقبلها .. ويمضى الكلام عن الديك وبقية الاطعمـــة . وينتهى مثل هذا الكلام عادة بأن تـــكون هذه الجميلة قد وقعت فى غرام هذا الذئب الذواقة للطعام والجمال !

* * *

www.alkottob.com

ومع هذه الحيوانات الواردة من امريكا ظهرت امراض كثيرة . في مقدمتها امراض الزهرى والسيلان التى نقلها كولمبوس ورجاله الى اوربا ـــ هذه حقيقة مؤكدة !

واطلق الانجليز عليهـــا : الأمراض الفرنسية . والفرنســـيون وصفوها بانها : امراض انجليزية !

وفى مذكرات كولمبوس نجده يقول مثلا : ومجاة شعرنا بظهور دمامل .. ومجاة شعرنا بنوع غريب من النزيف . ولا نذكر طعاما معينا ادى الى ظهور هذه الأمراض الغريبة !

ولم يكن كولمبوس يعرف هذه الأمراض السرية ، فهى لا تجيء بعد الأكل وانما بعد المعاشرة لنساء الهنود الحمر !

وحاول احـــد بحارة كولمبوس ان « يتفلسف » فوصف هـــذه الأمراض ، ولكنه عندما اراد ان يجد لها سببا معقولا قال : بسبب النبيذ الفاسد على الريق !

ولكن اهم ما ظهر فى الفـــكر الاوربى الأدبى والحيوانى ان هذه الرحلات الى العالم الجديد قد ادت الى ظهور حيوانات غريبة الأحجام عجيبـــة الألوان . هذه الحيوانات يؤكد كل النـــاس انهم راوها بانفسهم . وانهم لم يسمعوا عنها من أحد . وكل كتب القرون الـ ١٥ و الـ ١٦ و الـ ١٧ قد تماضـــت بهذه الكائنـــات الغريبة . فعشرات المغامرين الكبار يقولون انهم راوا الذئب الذى له راس انســـان ، او الانسان الذى له راس ذئب .. وانهم حاولوا صـــيده . وانهم قتلوه ، ولكن جاءت ذئاب أخرى وحملت جثته ودفنتها فى ضوء القمر!

www.alkottob.com

واكثر الناس رواية لهذه القصص هم البحارة . وهم يتفنون فى وصف هذه الحيوانات المائية او البرمائية (واذكر اننا عندما ذهبنا الى البصرة بالعراق مهد « الف ليلة وليلة » اعلن كثيرون من الادباء انهم شاهدوا عروس البحر .. شاهدوها واقفة وجالسة ، وانهم يقسمون على ذلك ؟ !) وكل بحارة القرن السادس عشر قد اقسموا على ذلك ايضا . وتؤكد بعض الكتب أن هناك نوعا من الاماعى طولها ٥٠٠ قدم . وان هذه الاماعى تلتف حول السفن فتسحقها وتبتلع ركابها واحدا بعد واحد . فاذا امتلات هذه الاماعى بالطعام يستطيع الطفل الصغير ان يقتلها بقطعة حجر ! ولكن اين يكون هذا الطفل وكيف يمكن ان يقتلها ؟

ان الكاتب اولاس ماجنوس قد اصدر كتابا فى سنة ١٥٥٥ يصف فيه الكائنات البحرية المخيفة . وقد خصص صفحات طويلة لهـذه الاماعى الكبيرة

وفى القرن ١٦ ظهرت كتب تتحدث عن عريس البحر ـــ سمك على شكل رجل . وهذا السمك لا يأكل الا الزئوج والهنود الحمر ..

أما عروس البحر فلا تأكل الا البيض .. ويقال لا تحب من لحوم الاوربيين سوى لحم الاسبان ! واذا كان عريس البحر يأكل عيون الفريسة فان عروس البحر تأكل قلوبهم .. تماما كما أن سمك القرش يأكل الذراعين والساقين .. وهناك نوع خاص من السمك يقفز من البحر وبقدرة غريبة يستقر على جسم الانسان . ويلتصق به ولايأكل الا نهود النساء ـــ الفتيات الصغيرات بصفة خاصة !

وربما كان هيرودوت المؤرخ الاغريقى هو اول من وصف لنا طائر

www.alkottob.com

« العنقاء » وقال ان هذا الطائر ينطلق كل خمسة قرون من شبه الجزيرة العربية الى مصر الجديدة حيث مات اجداده . ويظل يبكى على اجداده فى مصر الجديدة خمسة قرون ، ثم يعود بعدها الى شبه الجزيرة العربية ، فى مكان ما منها :

وتقول الكتب الاوربية فى القرن ١٦ أو مؤلفيها راو العنقاء هذه . وان العنقاء قد لفت حول عنقها ثعبانا ضخما . هذا الثعبان اذا نظر الى انسان تحول الانسان الى حجر .. أو ما يشبه الحجر . وبسرعة ينقض الثعبان على الانسان يمتص دمه . أما العنقاء فتكون قد سلبته عينيه ! وقد صور الفنان الايطالى تشليني هذه المعانى وروى هو نفسه قصصا من هذا النوع ، ويقسم انه رأى ذلك بعينيه — كلهم يقسمون على ذلك ويطلبون منا أن نصدقهم !

حتى الفنان العظيم دافنشى يؤكد فى مذكراته انه رأى بعض هذه الحيوانات ، التى لم نعثر لها على اثر بعد ذلك .. ودافنشى ليس عبقريا مخرفا ، وانما هى حالة نشاط مجنون لخيال فنان عبقرى تجعله يرى ما يرى .. انها « حالة سيريالية » اى حالة يطير فيها الفنان الى ما فوق الواقع — كما يقول عنه العالم النفسى الكبير فرويد ..

وشىء من هذا قد اصاب الفنانين والمفكرين بعد اكتشاف امريكا ..

وقد ظهر عند الاطباء جنون جديد لعلاج كل الأمراض . أو نوع من الطموح الطبى . فتوهموا أن هناك مواد نادرة لعلاج الأمراض .من ذلك مادة فى مخ الغزال . اذا عثرنا عليها ، كان الشفاء فى أيدينا .. واحيانا يستخرجونها من الحصوات فى كلية الغزال . هذه المادة اطلق

www.alkottob.com

عليها الفيلسوف العربى ابن سيناء مادة : البادزهر . وهى شفاء من كل سم ومن كل مرض .

ومن العجيب أن الفيلسوف العربى ابن سينا ، قد شخص الكثير من الأمراض . وجعل مادة البادزهر شفاء لكل داء . . وهذه المادة نادرة جدا ، ولذلك فكانت تساوى وزنها ذهبا . . أو أضعاف وزنها ذهبا . ولا أحد يعرف ان كنت تشفى حقيقة من كل داء . فالذين كانوا يتناولونها لم يقولوا لنا شيئا !

وظل هذا « الوهم » سائدا مئات السنين . . ولكن استطاع أحد الأطباء فى بلاط الملكة كاترين دمديتشى أن يثبت لها ان مسحوق قرن « وحيد القرن » ليس ترياقا يشفى من كل مرض . فقد وضع السم لديك ، ثم أعطى الديك هذا المسحوق السحرى فمات الديك رغم ذلك . . ولكن أحدا فى بلاط الملكة لم يصدق هذا الطبيب «المخرف» .

ويقال أن البابا كليمنت السابع عندما قارب الوفاة تلفت حوله يسأل الكرادلة ان كان أحد قد وضع له السم — فانحنوا وبكوا وقالوا : أعوذ بالله ومن يجرؤ على هذه الخطيئة !

ولكن البابا كان يعلم طبيعة الانسان ، ان واحدا من الحواريين حول المسيح قد سلمه لاعدائه . . فليس غريبا ان يقتله واحد من الذين حوله . . وكان أحد الكرادلة أسرع الجميع الى فهم ما يدور فى رأس البابا فأسرع وأتى بمسحوق القرن . . ووضعه فى كوب من الماء . . ثم وضع كمية أخرى . . وظهرت السعادة على وجه البابا . . وشرب الكوب ومات . . وقد اهتدى الأطباء بعد ذلك عندما أرادوا

www.alkottob.com

ان يعرفوا سبب وفاة البابا ، الى أن السبب الحقيقى هو مسحوق القرن السحرى !

ومات البابا وسره معه .. ولكن الخرافات تعيش بعد ذلك اطول عمرا من البابا ، لانها تنبع من جهل الانسان بما لا يعرف ورغبته فى ان يعرف بسرعة . وكل عصر من العصور له حقائقه الجديدة ، واوهامه الجديدة .. فلا عصر بلا خرافات !

www.alkottob.com

ذهب كل أرض تدوسها الأغنام!

يقال ان احدى اميرات الصين قررت ان تسعد شعبها . فظلت تفكر فى احسن الطرق . ولم تهد الى شىء . يقال نامت وقامت وهى سعيدة جدا . ماذا رات فى نومها ؟ رات دودة صغيرة تمشى بين اوراق الشـــجر . ثم تاوى الى بعض الأوراق عندما يخرج من فمها خيط ناعم .. وتظل الدودة تعمل ذلك حتى يتكون من الحرير كفن تموت فيه هى التى دفنت نفسها . ثم بعد ان تموت تصحو مرة اخرى .. لتموت بعد ذلك .. وذهبت الأميرة الى احد رجال الدين تروى قصتها . طمأنها رجل الدين قائلا : ستكون لك حماة قاســية القلب . تحاول ان تدفنك حية . ولكنها هى التى ستموت فى النهاية !

ولم تقتنع الأميرة بتفسير رجل الدين . فذهبت الى كبير الكهنة . وقال لها : ان الذى رايته فى نومك حقيقـــة . اذهبى الى الغابات وابحثى عن هذه الدودة ففيها سر الصين كلها !

www.alkottob.com

وعثرت الاميرة على دودة القز ..

واصبح دود القز سرا ملكيا منذ اكثر من اربعة آلاف سنة .. وكانت للصين اعياد للحرير . يتهادى فيها الناس دود القز وبعض شرانق هذه الدودة العجيبة ..

وانتقل السر من قصور الملوك الى بيوت الشعب . وظلت الصين تضن بهذه الدودة على كل الشعوب الاخرى وكان يكفى ان يقال ان مواطنا اخذ معه بعض الدود خارج الحدود ليصدر قرار باعدامه فورا .

وتسللت الدودة الى كوريا .. ومنها الى اليابان . ومن اليابان اصبحت صناعة الحرير ونسيج خيوطه من اهم مخصصات الاسرة المالكة .. ويقال ان الامبراطورة اذا غضبت لسبب ما ، وكثيرا ما كانت تفعل ذلك مما ادى الى قصف عمر زوجها ، فانها تاخذ دودان القز معها وتظل تتامل قدرة الله ..

ويقال ان احدى الامبراطورات كانت تنظم الشعر . ومما قالته : « حياتى كهذه الدودة .. هادئة ناعمة راضية . وفى النهاية ماذا ؟انا الذى اعمل وانا الذى اتغطى باكفان من الحرير واموت فى صمت فالصمت حياتى والصمت مماتى .. ولااحد يدرى بذلك » مفهومطبعا انها تريد أن تقول انها تتعذب وتعمل وتموت دون ان يشعر احد بوجودها — زوجها واولادها طبعا . والشكوى من الرجل والاولاد قديمة وتتجدد فى كل بيت ومن كل زوجة وأم !

ولم تعرف أوربا الحرير هذا الا بعد ذلك بالوف السنين.. فملابس الاغريق والرومان بسيطة جدا . وعندما عرفوا الحرير كان ذلك شيئا نادرا . ولم يقدر على شرائه الا الملوك والاباطرة . وفى نفس الوقت

www.alkottob.com

كانوا يرون أن هذه الملابس الناعمة لا يصح أن يرتديها الرجال . لانها ناعمة لينة . ولا يصح أن ترتديها النساء لانها تكشف الجسم.

وفى القرون السابقة على المسيحية لم يكن الرومان والاغريق قد عرفوا الملابس الداخلية وانما ظهرت هذه الملابس الداخلية عندما اقبل الرجال على النساء . وفى بلاد الاغريق أيام الفلاسفة سقراط وافلاطون وأرسطو ، كان المثل الاعلى للجمال هو جسم الرجل والرجل نفسه . وفى هذا العصر انشغلت المرأة عن ارضاء الرجل . ولكن بعد أن اتجه اليها الرجل ، بدأت المرأة تختفى وراء ملابس داخلية وخارجية .. وكلما التفت الرجل الى المرأة اكثر عرفت الملابس الضيقة التى تكشفها وفى نفس الوقت تغطيها أيضا . فمع الميول الجنسية الشديدة عرفت المرأة الاقمشة الحريرية .. ولكن نساء الطبقة الغنية فقط . فقد كان الحرير غالى الثمن ..

ان الامبراطور يوليوس قيصر قد اشترى قماشا حريريا ليزين به احد المسارح . ولكنه لم يجرؤ على ارتداء ملابس حريرية . لا يسمح بها لنفسه ولا لغيره . بل اننا نقرأ فى احدى المحاكمات من يقول : ولكن كيف اصدق رجلا يرتدى ملابس حريرية .. انه ليس رجلا !

أما الامبراطور الشاذ جنسيا واسمه هليوجبالوس السورى ، فقد ارتدى ثوبا من الحرير الاحمر فى احدى الحفلات . والتفت اليه الناس بدهشة . ويبدو أن الامبراطور لم يلفت النظر بدرجة كافية فانسحب من الحفلة وارتدى الثوب على اللحم وراح يتمرغ على الارض أمام النبلاء .

ولم يكن هذا الحرير الذى عرفته اوروبا فى أوائل العصور المسيحية

www.alkottob.com

قد جاء من الصين . انه نوع ردىء من الحرير . ولكنه غالى الثمن . . لما الحرير الصينى فلم يظهر الا بعد ذلك بالف سنة . ووصل الى اوروبا من طرق مخطفة . .

فالامبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى قد اتفق مع اثنين من الرهبان على ان يخفيا الحرير فى ملابسهما . وجاء الراهبان وقد حمل كل منهما عصا مفرغة . اخفى فيها بيضات الحرير . ودخل الحرير الى بلاد الامبراطور وتولت زوجته الغانية الفاتنة الفاجرة ثيودورا صناعة الحرير . فقد كان لها فى قصرها عشرات الحجرات اعدتها لدودة القز . وكانت الامبراطورة تغزل الحرير . أو تأتى بمن يستطيع ذلك . ويقال ان الامبراطورة ثيودورا قد تعاونت مع أحد امراء الحبشة على زراعة اشجار التوت فى تركيا القديمة . ونجحت الاشجار وانتشرت صناعة الحرير فى ذلك الوقت . واحتكرت الامبراطورة غزل الحرير وحرمته على كل الناس. وكانت الامبراطورة تستعين بالفتيات فقط فى تربية وغزل الحرير .

وكان من عادة الامبراطورة ثيودورا كلما فرغت من عمل ثوب حريرى اقامت حفلة خاصة للملك . وانت بالراقصات والمغنيات ورقصت هى امام الامبراطور فى ثوب من الحرير ثم انت بثوبها والقت به فى برميل النبيذ . . وراحت تمشى عارية تعصر النبيذ فى انواه الضيوف !

وكانت تسمى تلك الليلة « الحرير من النبيذ » . . او « النبيذ من الحرير » . . وكانت لهذه الامبراطورة ايام اخرى كثيرة . ولكن اروعها هى ليلة : عصير الحرير !

www.alkottob.com

وكانت هناك امبراطورة اخرى اسمها نيودوبسيا . هى اول من ابتكر مسابقات الجمال فى العالم .. أو اختيار ملكة الجمال . فقد كان لها ابن جميل وكانت تريد أن تختار له أجمل الفتيات . فكانت تدعو كل اسبوع اجمل عشر فتيات ليختار واحدة منهن . الفتيات جميلات طبعا وقد ارتدت كل منهن فستانا من الحرير . ويرحن ويجئن على ايقاع موسيقى . ومع الليل والموسيقى والشراب ترتفع اطراف الفساتين لتكشف كل منهم على اماكن الجمال . ويختار الفتى بنت الحلال ، ومن الغريب انه لم يكن يفعل ذلك . ولم تكن الفتيات يضقن بما لايفعل الامير . فقد اسعدهن جدا ان يقع عليهن الاختيار وان يتعرين امام امراء وشبان آخرين ..

كل ذلك بعد ان تكون كل واحدة قد خلعت اكثر ملابسها الحريرية التى تدل على انها من اسرة قادرة على شراء فستانين من الحرير الصينى !

واصبح العالم كله يتحدث عن طريق الحرير ، أو طريق تجارة الحرير الذى يبدأ من بكين مارا بالهند وايران وتركيا .. وسوريا . وقد انتقل الحرير من شمال افريقيا الى أوروبا فى القرن الثامن عن طريق العرب . فالعرب ادخلوا صناعة الحرير الى ايطاليا وجزيرة صقلية والى اسبانيا . صحيح ان دودة القز لم تكن قادرة على الحياة فى الاجواء الباردة . فماتت بالملايين . وكذلك اشجار التوت لم تتحمل البرودة والجليد فذبلت . ولكن استطاع الانسان ان يتغلب على هذه الصعوبات .

وقد شهدت اوروبا الملكة اليزابث وهى ترتدى جوربا من الحرير،

www.alkottob.com

صنعته احدى وصيفاتها . اسم الوصيفة اصبح ماركة للقمصان الانجليزية : مونتاجى . وكانت ملكة انجلترا تستورد خيوط الحرير من اسبانيا . وظلت انجلترا تستورد الحرير من اسبانيا فى اشد الظروف قسوة ، وفى نفس الوقت كانت انجلترا تحرم تصدير الصوف الى الخارج .. وبينما كانت اسبانيا تحتكر دودة القز كانت انجلترا تحتكر اغنام الصوف .

وفى سنة ١٥٩٨ اعلنت الملكة اليزابث فى احدى الحفلات الرسمية ان لديها ستة ازواج من الجوارب الحريرية . ويبدو ان هذا خبر شخصى جدا . ولكن الملكة ارادت ان تقول ان هذه هى البداية .. وسوف تظهر جوارب اخرى كثيرة ، ولم تظهر الا بعد ذلك بوقت طويل !

فى ذلك الوقت كان احد المهندسين الانجليز واسمه « لى » يعانى من ازمة حب شديدة . انه يحب فتاة جميلة . ولكن اذا ذهب اليها تنشغل منه تماما . فيظل هو وحده يتكلم . وهى لا ترد . واذا ردت فانها لا ترفع راسها لكى يرى عينيها . ان عينيها تركزتا على شىء فى يديها . انها تغزل خيوط الصوف لعلها تصنع جوربا او شالا .. ولكنها لا ترد . هو يحبها . وهى ايضا . ولكن الحب كلام ، ولا كلام بينهما . او هو الذى يتكلم وهى التى تسمع دون ان تقول شيئا . وانكسر قلب هذا المهندس . واختفى عن العيون سنة . ثم عاد يطلب مقابلة الملكة اليزابث وانحنت له . وقدم لها جهازا من اختراعه يعفى المراة من غزل الصوف بيديها . لانه لا يريد حبيبته ان تعمل ذلك . وان تتحدث معه بعض الوقت . وقالت الملكة : كنت اظنك قد اخترعت شيئا لغزل الحرير .

www.alkottob.com

وقال المهندس : افعل ذلك حالا !

واختفى المهندس سنة ليعود الى الملكة بجهاز جديد لغزل الحرير حتى لا تنشغل عنه حبيبته . ولكن الملكة لم تفرح بذلك . لان هـذا الجهاز سوف يجعل الحرير فى متناول كل الناس . وهى تريد الحرير خاصا بها وبالاسرة المالكة . ثم ان مغازل الحرير أو الصوف سوف تؤدى الى تعطيل الوف الأيدى العاملة . فذهب الرجل الى فرنسـا يعرض اختراعه الجديد . ولكن فرنسا كانت مشغولة فى الاحداث التى اعقبت اغتيال الملك هنرى الرابع .. وزاد حزن الرجل وعاد الى حبيبته فوجدها تتكلم وتنتظره .. انهـا الآن لم تعد تغـزل لا الصوف ولا الحرير ـ لقد فقدت بصرها !

وفى عصر لويس الثالث عشر عرفت فرنسا التقشف والبهدلة فى اللبس . وكان هذا الملك متشددا ، فخربت مغازل كثيرة فى معظم المدن الفرنسية .. وتشرد الدود على الشـجر . وماتت الشرانق وطرد الحرير من بلاد الاناقة !

ولكن اعيدت كل هذه الصـناعات بعد ذلك . واعلن الكاردينال ريشليو : انه من الحماقة ان نحرم على انفسنا ما اراده الله لنا من جمال ـ اعيدوا الدود الى الشجر ، والحرير الى الازياء !

* * *

واذا كانت « دودة القز » هذه قد زحفت من آسيا ، فان «الاغنام» ايضا قد جاءت من آسيا ، ولكن فى عصور قديمة جدا . وربما كانت

www.alkottob.com

الأغنام أكثر الحيوانات هجرة من مكان الى مكان .. ففى كل عصور التاريخ كان هناك رعاة ، لان الأغنام قد سبقت الانسان .. ولكن الأغنام التى ظهرت فى أوروبا كانت ضئيلة الحجم وكان شعرها خشنا جافا . أما الأغنام الجيدة فهى التى جاءت من آسيا ، ومن شبه الجزيرة العربية بصفة خاصة ..

وظلت هذه الأغنام يخلط بعضها ببعض حتى كان هذا النوع الاسبانى الشهير باسم مرينو . وهذه الأغنام وصلت الى اسبانيا تماما كما وصلت دودة القز عن طريق شمال افريقيا .. وبوصول الأغنام الى اسبانيا بدأت حرب الخيوط بينها وبين بريطانيا .. خيوط الحرير وخيوط الصوف .. احتكرت اسبانيا الحرير ، واحتكرت بريطانيا الصوف . وبدأت معركة السيادة على الاسواق .. ومعركة السيادة على البحار . واعتقدت بريطانيا الى انه من الأفضل أن تنقل الأغنام من بلادها الى المستعمرات . فانتقلت الأغنام الى المراعى الاكثر غنى فى مستعمراتها . وفى عصر حرب الخيوط ، أكلت الأغنام الأرض المزروعة .. بل ان الناس فى بريطانيا كانوا يقتلعون الاشجار ويتركون الحشائش غذاء للاغنام التى تعيش عليها بريطانيا . بل ان رجال الدين الانجليز كانوا يخطبون فى الكنائس يطلبون من الله أن يرفع عنهم لعنة الأغنام التى أكلت الاشجار وحولت المدن الى مرعى تأكل عليه .. وكانوا يقولون : ان الله خلق الأرض للانسان فتركها الانسان للاغنام . فاستحق الانسان لعنة الله !

وكان الناس يقولون : ذهب كل أرض تدوسها الأغنام !

ولما اهتدت بريطانيا الى أماكن اغنى وأدفأ خارج جزيرتها ،انتقلت اليها الأغنام . وعادت الزراعة الى الأرض . وعادت الارض الى الانسان !

www.alkottob.com

واخترع الانسان الآلة لتعاون دودة القز وتعاون الاغنام ..

ثم عاد الانسان يخترع اجهزة اخرى لتأخذ مكان الديدان والاغنام، عندما اخترع الخيوط الصناعية ..

ولكن لا تزال هذه المنتجات الطبيعيـــة ـــ خيوط الحرير وخيوط الصوف وخيوط القطن ـــ اروع واجمل ..

ان دودة صغيرة ضعيفة قد طردت امامها ملايين الاغنام . فما اكثر ما تفعله دودة فى حياة الانسان .

www.alkottob.com

الحاجة لتعليم الإنسان
كيف يكون حصانا نبيلا !

لم يفهم القاضى طبيعة الخلاف بين رجل وزوجته . وعاد يسأل الرجل :

ولكن لماذا اصبح هذا الخلاف حادا الى هذه الدرجة . اليست هى زوجتك !

يقول الرجل : بلى واحبها !

تقول الزوجة : كذاب يا حضرة القاضى ! كان يحبنى فيما مضى . اما الآن فلا .. ضحك على حتى جعلنى اترك اهلى ودينى . وبعد ان تمكن منى ، وصلنا الى ما نحن عليه .

يقول الرجل : ولكن ما الذى نحن عليه .. انه خلاف اخترعته . وهى التى طلبت ان اجىء اليك وان تكون مشاكلنا مضائح . فاذا اصبحت لمضائح ضعفت انا امام الرأى العام . ولكن لن اغير موقفى.

يقول القاضى : كنت تحبها !

www.alkottob.com

ـــ نعم . ولا ازال .
هى تقول : كان يحبنى !

القاضى : فى وقت من الاوقات كان هناك حب .. وفجاة تغير كل شىء .

الاثنان يقولان فى نفس واحد : نعم ! .

القاضى : منذ متى ؟

الاثنان : منذ اسبوع .

القاضى : وانتما متزوجان منذ متى ؟

الاثنان : منذ اسبوع !

والقضية ليست عاطفية . وانما جلس هذان الزوجان من ابناء البرتغال يحلمان بعدد الاطفال الذى سوف يكون . قالت الزوجة : اريدهم جميعا من البنات . وقال الرجل : بل من الاولاد ..

واتفق الاثنان على ان يكون ثلاثة من الاولاد واثنتان من البنات . وجلس الزوجان يحلمان ويفكران فى احسن الاسماء . وقالتالزوجة: انت الذى تحسن الكلام والتعبير . وهذا هو الذى جعلنى اموت فيك هياما .. انت تختار الاسماء . انا آتى لك بالاولاد والبنات وانت الذى تسمى هذه الذرية الصالحة ان شاء الله ..

وفجاة صرخ الزوج : وجدت الاسماء ..

وسمعت الزوجة الاسماء وصرخت . ولطمت خديها . وشـــقت ثوبها .

www.alkottob.com

وقالت : الطلاق .. لا حياة معك . انت رجل مجنون !

اما لماذا هو مجنون فقد اختار هذه الأسماء لاولاده : النمر .. الفيل .. الخرتيت ـــ للذكور . اما الاناث : الغزالة .. النسناسة!

ولم يكن الرجل يداعب زوجته . ولا يريد ان يطلقها . وانما هو « ابن عصره » . وفى ذلك العصر انشـــغل ابناء اوربا بالحيوانات القادمة من الشرق . ورأوا فيها اجمل واروع ما خلق الله .

صحيح ان كولمبوس اكتشف امريكا ولكنه فتح أبواب الشرق :الى امريقيا وآسيا .. والى الهند .. وأصبح كل الذين يرتادون الطرق الى الشرق السحرى ، أهم من الذين يزحفون على امريكا ، بل ان الرحلة ناسكو داجاما اهم من كولمبوس .. وافريقيا اهم من امريكا .. وهزيمة الاسطول التركى فى المياه اليونانية ، اروع عند الاسبان من كل معاركهم وفتوحاتهم .. وأصبحت هدايا قبائل افريقيا أعظم واغلى عند اهل البرتغال من كل ما يجيء من مستعمراتهم الكبرى : البرازيل ..

وفى القرن السابع عشر اعلن اديب اسبانيا العظيم سرفانتس :ان مدينة لشبونة هى مركز الدنيا . اليها يجيء الذهب . ومنها يخرج الرجال الى مجاهل الشرق الساحر الباهر ..

واصبح من مظاهر الثراء عند الناس فى اوربا ان يستعرض كل منهم ما لديه من حيوانات غريبة .. فمكان الذى يمشى فى شـــوارع مدريد يرى الحيوانات من نوافذ البيوت .. ويرى الطيور الملونة .. وبسرعة تحولت القصور الى حظائر للحيوانات الافريقية ..

ومن الغريب أن هذه الحيوانات لم تظهر فى لوحات الفنانين . ولكن فى حالات نادرة ظهرت بعض الطيور بالوانها الزاهية .

www.alkottob.com

وكانت اشهر الحيوانات التى لفتت الاوربيين وشغلت الصيادين: الاسد والفيل والنمر والضبع والنعامة والخرتيت .

وكان الامبراطور الالمانى فريدريش الثانى (١١٩٤ ــ ١٢٥٠) من اكثر الناس حبا للحيوانات . وكان يقيم لها حديقة ملحقة بقصره . وحدائق الحيوانات عادة استعارتها أوروبا من ملوك الشرق .

وبعد ذلك تعود الناس فى اوروبا ايضا أن يجدوا حدائق للحيوانات ملحقة بقصور الملوك والنبلاء . وربما كانت اشهر حدائق الحيوان فى اوروبا يملكها البابا بيوس العاشر (١٨٣٥ ــ ١٩١٤) وهو واحد من اسرة مديتشى الشهيرة العريقة . وكان هذا البابا يحب الحيوانات ويرعاها ويدعو الى الرحمة بها والعطف عليها . وكان يعطف على الفنانين . « فالفنان حيوان يحب الحيوان . لانه يحب الحياة وجمال الحياة وحكمة الله » .

* * *

وحدث قبل ذلك عندما زار البابا بيوس الثانى (١٥٠٤ ــ ١٥٦٤) احد النبلاء من اسرة مديتشى أن اتاحله موكبا فخما .وجعل الحيوانات تتقدم هذا الموكب . ووقف الناس يتفرجون على هذه المخلوقات العجيبة . وكان عدد هذه الحيوانات كبيرا . ولكن لم تكد الاسود ترى بعضها البعض حتى افلتت من قيودها . وتحولت الى اشلاء ودماء .. الا زرافة . هذه الزرافة كانت هدية من احد سلاطين مماليك مصر الى اسرة مديتشى . ويقال ان احد الشعراء قد ارتجل قصيدة عندما جاءت هذه الزرافة الى مدينة تلورنه .

www.alkottob.com

يقـــول فى قصـــيدته : طـــال كل شيء فيـــك . عنقـــك وسيقانك الاربع واذنك وانفـــك .. امـــا عينـــاك فهما مسروقتـــان من وجه حبيبتى .. اما لونك فمســـتعار من براكين صـــقلية .. اما مقامك العالى فلا يعيبه الا ان راسك صغير وعقلك ايضا .. ولكن ليس من الضرورى ان يكون الجميل عاقلا .. يكفى ان يكون الجمال والجميل اكبر لصين لكل العقول » .

وهناك يوم فى تاريخ الانسان او فى تاريخ المغامرات او فى تاريخ الحيوان لا ينساه احد عندما ارسل ملك البرتغال مانويل هدية الى بابا الفاتيكان بيوس العاشر . الهدية : فيل واثنان من النمور وضبع قد ركب حصانا عربيا . اما الخرتيت الذى ارسله الملك مانويل فقد غرقت به السفينة فى البحر الابيض .. ويقال ان الخرتيت ظل يضرب السفينة حتى خرقها واندفعت المياه . والقى الخرتيت بنفســـه فى البحـــر ..

ومشى الموكب فى شوارع روما .. والناس يتفرجون على اعاجيب الهدية الافريقية . ودقت اجراس الكنائس .. ووقف البابا يشير الى ان تضرب المدافع .. وانطلقت المدافع ووقف الفيل على رجليه الخلفيتين ورفع زلومته الى اعلى يحيى البابا والكرادلة امراء الكنيسة .. وبسرعة تقدم احد الحرس الملكى البـــرتغالى بثلاثة جرادل من الماء المعطر .. ووضعها امام الفيل .. ومد الفيل خرطومه وملأه بالماء وراح يرش البابا والكرادلة والناس يصرخون من الفرحة .. وكان يوما مشهودا فى تاريخ الحيوان ، والعلاقة بين عرش البرتغال وكنيسة روما !

وارهق رجال الدين انفسهم فى شرح ما حدث . قالوا : ان الفكرة

www.alkottob.com

هى أن يدرك الانسان بوضوح انه مهما كانت الحيوانات قوية ، فان الانسان هو الاقوى بذكائه . ان هذه الحيوانات قادرة على سحق اقوى الرجال ، ولكن الحيلة تغلب القوة . والذكاء يقهر الوحوش.. فهذه الحيوانات كلها قد احتال عليها الانسان واتى بها من غابات لتكون ذليلة ذلولا أمام اصغر الاطفال . ثم انها مخلوقات الله . ومن الواجب العطف عليها ومحبتها !

* * *

وأول مظهر من مظاهر الحب والعطف والاعجاب كان بالحصان. ان تاريخ الحصان والانسان طويل . فالحصان فى العصور الوسطى كان « أداة » عسكرية يركبه الجندى المغطى بالحديد ، ويتغطى الحصان بالحديد ، ويدخل الاثنان المعارك حتى الموت — الحصان هو الذى يموت غالبا . وكان من الصعب على الانسان أن يرى ملامح الحصان فهو مثل دبابة ذات أربع أرجل . ولكن أحدا لم يلتفت الى جمال ورشاقة هذا الحيوان النبيل . فهو وسيلة لشىء ، ولم يكن غاية . فلا أحد قد فكر فيه ، او التفت اليه .. او نظر الى تركيبه الجسمى الجميل او الى خطوته .. وانما كان الحصان مصفحة أو قذيفة يركبها المقاتل .

ولكن بعض النبلاء الايطاليين فى القرن السادس عشر تنبه فجأة الى ان هذا الحيوان الجميل.يقول النبيل الايطالى فدريكو جريسونة فى مذكراته : « كل شىء حدث فجأة . وكأننى لم ار الحصان فى حياتى قط .. لقد نظرت اليه .. وتأملته .. واحسست كأننى نبى مكلف بانقاذ هذا الحيوان من الانسان .. فهذا الحيوان شكله جميل ،

www.alkottob.com

وخطوته قوية نامية . وحركته رشيقة .. وهامته مرفوعة .. انه واحد من النبلاء هجر حياة الانسان واحتبس فى هذه القلعة الفخمة من اللحم والشحم . ان هذا الحيوان أسير، وانا الذى سوف أحرره»

وبدأ النبيل جريسونة يعلم الحصان كيف يخطو . وكيف يقفز من فوق الحواجز .. وافتتح مدرسة لتعليم الخيول . أو على الأصح ليعلم الناس كيف يعاملون الخيول، بما تستحقه من التقدير والاحترام والحب ..

وانتشرت اخبار هذه المدرسة . وجاء النبلاء . وجاءت الخيول وتعانق الانسان والحيوان فى اطارات من الحركة الجميلة . ويمكن ان تسمى هذه الحركة الفروسية : اى ان يكون الانسان فى سمو الحصان وفى جماله .. وان يكون شهما نبيلا . محبا للحياة والحيوان والانسان ..

ومن بعده جاء رجل ايطالى آخر اسمه بنيامللى . هذا الرجل هو الذى وجه الدعوة الى بلاط الملوك والامراء وهو الذى وجد الشجاعة ليقول : « مولاى » صاحب الجلالة يجب الا يكون القصر الملكى زريبة للخيول . وانما يجب أن يكون مقرا شتويا وصيفيا لعدد من الاصدقاء الاوفياء لهم اربع ارجل وذيل وعنق وبشرة حريرية لامعة .. يجب ان يكون النبلاء والامراء اصدقاء للخيول ، اى اصدقاء لطراز من الكائنات تعلمت منها معنى الشرف والشهامة والشجاعة والجمال والاناقة .. مولاى صاحب الجلالة .. ان كل قصر يضم خيولا تاكل وتشرب من اجل أن تموت فى القتال ، ليست الا مجزرة الا زريبة ملكية .. مولاى انت حر فى اختيار اصدقائك واصفيائك .. ولكن

www.alkottob.com

يجب ، يا مولاى ، الا تنسى هذه العبارة التى تعلمتها من الخيول :قل لى كيف تعامل حصانك اقل لك من انت » .

وجاءت الخيول بالمئات والنبـــلاء بالالوف الى « اكاديمية تعليم الانسان كيف يمشى كالحصان » فى مدينـــة نابلى الايطالية . وكان بنياطلى يعلم الخيـــول كيف تمشى على الايقاع الموســـيقى . وكيف ترقص وحدها .. او قد امتطاها احد النبلاء .. ان عصرا من احترام الانسان للانسان او للحيوان قد بدأ .. وكانت البداية هذه المعاملة النبيلة لحيوانات اكثر نبلا هى : الخيول !

* * *

ولاسباب متعلقة بمزاج الشعب الاسبانى ، لقيت الثيران نوعا آخر من المعاملة . فمصارعة الثيران قديمة . ويقال قديمة جدا لدرجة ان علماء الآثار يجدون نقوشا على الكهوف القديمة لثيران تداصابتها السهام . رهى تنزف وتجرى .. والانسان لم يظهر فى هذه النقوش. اما لانه من المفهوم انه هو الذى اصابها ، او لان رسام النقوش اراد ان يقول ان الثيران كانت اسرع منه فى الهرب لدرجة انه لم يستطع ان يلحق بها فيظهر فى هذه النقوش !

ويقال أن هذه الثيران متعددة الاصـــول . بعضها ثيران اوربية وحشية .. وبعض هذه الثيران جاء من افريقيا ..ومن مصر . وبعض الثيران تشبه الآبقار الفرعونية القديمة .

وقصص ،الثيران ونوادرها فى تاريخ أسبانيا والبرتغال كثيرة جدا،

www.alkottob.com

ولاتزال .. يقال أن الملك الفونسو السابع ، أحد ملوك البرتغال اقام مصارعة للثيران بمناسبة تتويجه . ولم يكتف بالدماء التى سالت فى هذه الحفلة ، فقرر أن يتولى هو اطلاق السهام على عشرين ثورا حتى قتلها والجماهير سعيدة بمهارة ملكها !

وعندئذ ولد للملك الاسبانى كارلوس الخامس ابنه فيليب الثانى سنة ١٥٢٧ قرر الملك بهذه المناسبة السعيدة أن تقام مصارعة للثيران . وان يكون هو فارسها الأوحد . وظل يقتل من الثيران حتى همسوا فى أذنه بانه لم تبق فى المملكة ثيران . قال : اذن تؤجل الحفلة يا سادة الى أن تجىء ثيران أخرى من بلاد أخرى !

ويقال أن السياسى الايطالى الكبير الاسبانى الاصل شيزاره بورجيا (١٤٧٦ ــ ١٥٠٧) قرر أن يتسلى فى احدى الليالى . وكان له عشرون ثورا فى أحدى القلاع .. فظل يطلق عليها السهام حتى قتلها فى ليلة بدأت بغروب الشمس حتى مطلعها . فنقلوه الى فراشه مرهقا وهو يقول : لقد كان عملى شاقا هذه الليلة !

وكان من عادة النبلاء فى اسبانيا أن يصارعوا الثيران وهم على ظهر الخيل . حتى اذا هاجمتهم الثيران انطلحوا فى الهرب منها . وفى عصر الملكة ايزابيلا غطيت قرون الثيران . ولكن الجماهير لم تسعد بذلك .. فاهتدى الاسبان الى طريقة جديدة تجعل قرون الثيران حادة مدببة لكى تكون مفزعة لمصارعى الثيران وللمتفرجين ..

وفى البرتغال كانوا يضعون طبقة من الجلد على قرون الثيران ..

وعلى الرغم من أن مصارعة الثيران نوع من الرياضة العنيفة ،

www.alkottob.com

فان شكلها اقرب الى الصيد منه الى الرياضة . فالمصارع لايداعب الثور بعنف ، وانما هو يصيده ، ويقتله فى النهاية .. فهم يضعون الثور فى حظيرة مظلمة لبضعة ايام ثم يفتحون الحظيرة فجأة ويخرج الثور الى النور . ثم يجىء من يمسك له غطاء احمر داميا .. ثم من يضربه بالرماح .. ثم يصيب كتفيه ويسيل دماؤه .. كل ذلك لكى يثور الثور . فاذا ثار وهاج ، تقدم الفارس او « المتادور » — ومعناها الجزار — وراح يعاكس الثور ويدور به حتى يدوخ . فاذا داخ انقض عليه .. ومن العجيب ان الثور يخرج من الحظيرة مرهقا . وكأنه يعرف ما سوف يحدث له ، فانه لا يريد ان يشترك فى صراع مع احد .. بل انه يريد أن يهرب من النور الى الظلام ، غير أن باب الحظيرة قد اغلق .. وليس له الا ان يقاوم ، وهو مرهق تماما .. فكان المصارع قد خرج بمصارع حيوانات مكدودة . ولكن الجماهير تصرخ .. واحيانا الاميرة النارية .. ولابد ان يقتله ، سواء صارعه او لم يصرعه .. لان الجماهير لا ترضى بما دون الدم وموت الثور . والرقص والغناء للبطل الذى قتل الثور أمام ملايين العيون فى كل مكان .

وأصبحت مصارعة الثيران مهنة . حرفة .. غالية الثمن .. ومريحة . وأصبح للثيران تاريخ . وهم يحرمون على اختيارها وتربيتها . وهم لا يطلقون سراح الثور بعد المعركة ، ولا يحيلونه الى التقاعد ثم ياكلون لحمه بعد ذلك .. لابد ان يموت !

وحاولت اسبانيا كثيرا ان تشغل الناس بمصارعة الديوك .. ولكن هذه المصارعة موجودة فى المستعمرات الاسبانية القديمة .. نجدها فى الفيلبين ، وبعض الجزر الآسيوية .. وهذه المصارعة تلقى نفس الاهتمام ، ولكن احدا لا يستطيع أن يقيم مصارعة للثيران لانها غالية الثمن .. ولكن هناك مقامرات على الديوك التى تشترك فى

www.alkottob.com

المصارعة او فى القتال .. ويضعون الأمواس والسكاكين القاطعة فى أرجل الديوك . فلا يكاد يبدأ الشجار بين الديوك عندما ترتفع فى الهواء وتضرب الخصوم بأرجلها ، حتى تسيل الدماء ..

وبقيت مصارعة الثيران هى « الرياضة » العنيفة التى يقبل عليها الاسبان .. ويعرفون تاريخ ثيرانها وابطالها .. هؤلاء الأبطال الذين اثاروا الفزع بين المتفرجين : وفازوا بالمال والمجد فى النهاية ، من مئات السنين ، وحتى اليوم !

www.alkottob.com

من يعرف الانسان كثيرًا يحتقر الحيوان أكثر !

• على باب احـــدى خلايا النحل وقف رجل انجليزى فى دهشة . وانتهت دهشته بان صرخ، فقد لسعته نحلة . وعاد الى البيت ليقول : شىء فظيع . كتب كل ما قاله الشعراء . الحقيقة شىء آخر .. ان هؤلاء الشعراء قد اخروا الحضارة الانسانية الوف السنين . لو استطيع ان اجمعهم فى مكان واحد واطلق عليهم النحل .. لو استطيع ذلك لارحت الانسانية كلها ! ..

ولم يستطع هذا الكاتب مندفيل ان يحشر الشعراء فى خلية واحدة ويستريح منهم . ما الذى حدث لهذا الكاتب الانجليزى سنة ١٧٢٠؟ لقد راى احدى خلايا النحل . ووجد بها حركة ونشـــاطا عظيما . وفجأة وجد النحل يتزاحم على دبور ، طردوه . ثم عاد الى الخلية. طردوه وعاد مرة ثانية واخيرا تكاثر النحل عليه .. وســـقط الدبور ميتـــا !

واندهش الرجل كيف يحدث هذا فى مملكة النحل . كان رأيه مثل

www.alkottob.com

الشعراء انها مملكة تصنع العسل بالدموع . مملكة تكرم المراة وتقبلها حاكمة عليها .. وان خلية النحل تطعم الملكة لتكبر الملكة ويتحول الجميع الى خدام لهـا .. كل ذلك يتم فى هدوء وسلام .. والنتيجة عسل . ولكن هـذا الحادث الاليم جعله يعاود التفكير فى احوال هذه الخلية .. واصدر الكاتب الانجليزى كتابا عنوانه « خلية النحل او كيف تتحول الرذائل الشخصية الى فضيلة عامة » يقول:

هذه الخلية قائمة على الظلم . فالنحل الشغال يعمل . وهناك انواع اخرى من النحل لا تعمل . وانمـا تدور حول الملكة وتحميها وتتابعها . النحل الشـغال يجمع الرحيق من كل مـكان ويفـرزه ولا يذوقه . والملكة لا تقوم بأى دور سوى أن تاكل وتشرب وتبيض ويقول فى كتابه ايضا ان النحل طلب من آلهة الاغريق أن تعاونه ولكن الآلهة تعبت من انقاذ النحل من نفسه وخربت الخلايا ومانت الملكة واحترق النحل الشغال . أما الدبابير فقد أوت الى جذع نخلة وعاشت أيامًا للموت بعدها بقليل .

وهاجت الحكومة الانجليزية ولعنت هذا الكتاب واتهمت المؤلف بانه يريد افساد الاخلاقيات العامة .. وانه يهاجم النظام الملكى .. وانه يريد أن يشوه كل شىء جميل فى هذه الدنيا .. وانه هو الذى يقوم بدور الدبور وانه سوف يلقى نفس المصير .. ولم يلقى الرجل نفس المصير ، وانما عاش الكتاب بعد ذلك مئات السنين كصـورة جميلة لمحاولة اصلاح الانسان !

وبعد ذلك بسنوات ظهر قسيس ايرلندى اسمه سويفت . وقد وضع فى جيبه نسخة من كتاب مطبوع تحت اسم مستعار ، اسـم

www.alkottob.com

ابن اخيه . الكتاب اسمه : « رحلات فى بلاد بعيدة لجيلفر ، كان طبيبا اول الامر ثم بحارا لعدة سفن بعد ذلك .. » ومن مغامرات جيلفر هذا أن سفينته قد رست عند أرض سكانها من الخيول ان الخيول اذكى واشجع وأمثل واكثر نبلا . ولكنها تجد صعوبة فى الكلام . وفى هذه الأرض سمع من حيوان منحط غبى . وأن هذه الخيول تحاول أن تروضه وان تعلمه ولكن يبدو انه لا امل فى ذلك .. هذا الحيوان الذى تسميه الخيول « ياهوه » ليس الا الانسان نفسه !

كان جيلفر يريد أن يقول : أن الانسان ليس اسمى الحيوانات . وانما هو حيوان من نوع رديء ولكنه لن يتاكد من ذلك الا اذا سافر الى بلاد اخرى .

وعلى الرغم من أن رحلات جيلفر من اروع الاعمال الادبية والفلسفية ، فان هذه الرحلات قد أصبحت قصصا للاطفال ذات دلالة اخلاقية . او ذات مغزى فلسفى .. ولكنهارغم ذلك من الاعمال الابقى والأمتع .

وقبل هذه المقارنات الساخرة بين الانسان والحيوان ، او بين الانسان والحشرات ، وجدنا فى عصر النهضة تساؤلا استغرق مئات السنين : لماذا نجد الانسان يقتل الانسان ، ان الحيوانات لا تفعل ذلك ؟ ايهما الحيوان : الانسان أم الحيوان ؟

وكانت الاجابات كثيرة .

فمن بين الاجابات فى عصر النهضة ان الانسان حيوان لانه قليل

www.alkottob.com

الدين . ولو عرف الدين ، لارتفع بالايمان عن مستوى الحيوان .ولكن الانسان حريص على كفره ، فأصبح هذا الحيوان الكريه . وان الانسان قد حلت به لعنة الخطيئة الاولى . خطيئة آدم فى الجنة عندما اكل من الشجرة التى حرمها الله عليه وعلى زوجته .

ثم ظلت المقارنة بين الانسان وبين الحيوان فترة طويلة . فاذا اراد الانسان ان يفهم نفسه نظر الى هذه الحيوانات . لان هذه الحيوانات ليست الا نوعا من الانسان عاجزة من التعبير ولانها عاجزة عن التعبير فهى عاجزة من الكذب واخفاء مشاعرها . فهى اصدق من الانسان . اى أن الحيوان هو الانسان قبل أن يتعلم الكذب . فالحيوان افضل من الانسان .

ولكن المعنى فى كل عصر النهضة الاوربية هو هذه العبارة البليغة التى قالها الفنان باوبوتس من الوف السنين : الانسان ذئب لأخيه الانسان Homo homini Lupus .

وحتى عندما قال الفيلسوف العظيم ارسطو : ان الانسان حيوان سياسى Zooir Politikon
لم يكن بذلك يرفع من قدر الانسان وانما اراد أن يقول انه حيوان لايستطيع أن يعيش بمفرده . ولكن لابد ان يعيش مع الآخرين وبهم والحيوانات تفعل ذلك ايضا !

فقط عندما ظهر الساخر الفرنسى الكبير مونتنى بدأ الفكر الانسانى كله يتجه ناحية اخرى . فهذا الفيلسوف الفرنسى يقول : لا اظن ان الانسان افضل من الحيوان . انه احط من الحيوان . واعتقد

www.alkottob.com

اننى تجنيت على الحيوان عندما وصفته بانه منحط . فالانسان هو الذى قال انه اسمى من الحيوان . وهو قال ذلك لانه مغرور فقط .

فلا توجد صفة واحدة عند الانسان لا نجد صفة افضل منها عند الحيوان فالحيوان اقوى واشجع . واكثر تضحية من اجل الزوجة والابن . ان ذكور الذئاب تفدى اناثها وصغارها بالموت فى مقدمة القطيع ودفاعا عن الجميع .. وان الحيوانات اكثر نبلا من الانسان .. ان الطيور تفرغ بطونها فى بطون صغارها وتكاد تمـوت من الجوع .. ان الاسد يصيد الفريسة ثم يتركها لبقية الحيوانات فى الغابة ويجد المتعة الكبرى فى ان يرى الجميع تفعل ذلك .. أرونى حاكما يفعل ذلك من أجل شعبه !

ثم ان الحيوانات محبة للسلام . انها لا تشن الحروب . ولاتعتدى على أحد . كل ما تريده هو أن تظل فى مكانها تأكل وتشرب فى هدوء .. الا اذا هاجمها أحد . ويكون هذا الاحد هو الانسان عادة . فهو الغاشم المعتدى والحيوانات هى الضحية !

واذا اشتبكت الحيوانات مع الانسان فى عراك فلبعض الوقت ، وبعد ذلك تهدأ او تسكن كأن شيئا لم يحدث ، وكأن دماء لم تسل ، وكأن صغارا لم تمت .

وتوجد حيوانات يساعد بعضها البعض .. يقول مؤنثنى : انه رأى عددا من الطيور المهاجرة قد تقاربت وتلاحقت لانها تحمل طائرا مهيض الجناح . ورأى هذه الطيور تقوم بعملية تدليك لعضـلات الطائر .. فهى تشد ريشه بمنقارها .. ثم ترخى هذا الريش مرة

www.alkottob.com

بعد مرة .. ثم تبلل جراحه بريقها .. يوما بعد يوم .. حتى تمكن الطائر من الارتفاع فى الجو .. ولما لم يستطع أن يطير ، عادت فحملته على اجنحتها وركبت الهواء !

ويروى الفيلسوف مونتنى ان هناك حيوانات لها ذكاء الانسان ، ولها خبثه ايضا . ولكن الانسان قد تفوق على الحيوان بخياله وقدرته على الابداع ..

والفضل الوحيد للفيلسوف الفرنسى مونتنى هو انه لفت العيون والافكار الى الحيوان والى الانسان .. والى تقريب المسافة بين الاثنين .

وأهم من ذلك يقول مونتنى : كل ما عملته هو اننى سحبت الانسان من انفه ووضعته فى اقفاص الحيوان وتركته هناك . ثم نظرت الى الناس جميعا لاقول لهم : تعالوا نختبر ذكاءنا جميعا : اين هو الانسان واين هو الحيوان !

ومونتنى هو اول من وضع اسس « علم النفس الحيوانى » او علم نفس الحيوان .

وكثير من افكار الفيلسوف الفرنسى مونتنى ليست جديدة ولكنه استطاع بسخريته الشديدة وذكائه الحاد ان يضعها فى عبارة جميلة .

ولكن هل للحيوان « نفس » كالتى للانسان ؟ هل الانسان فقط

www.alkottob.com

هو الذى له نفس وله روح .. اى ان الحيوان بلا نفس ولا روح وانما مجرد حياة : ان يولد ويكبر ثم يموت دون أن يدرى من هـذه الدنيا شيئا ؟

مفكرون كثيرون قالوا : الحيوان ليس له نفس .. الانسان فقط هو الذى له نفس عاقلة . انه يتكلم . يكتب . يتخيل . اما الحيوان فليس « له نفس . واذا ضربته على راسه فلن يقول : آه .. وما دام لم يتوجع هكذا فليس له احساس !

وهناك فرق كبير جدا بين كلب يقف امامك يلعب بذيله يريد منك قطعة لحم ، وبين طفل ينظر اليك يريد نفس الشيء .. الطفل فقط هو الذى يعرف معنى اللحم والفرق بين اللحم والعظم !

وجاء فيلسوف المانى كبير اسمه ليبنتس يقول : لا فرق بين الشاعر والحمار .. كل واحد منهما جسمه مكون من ذرات . هذه الذرات هى بذور الحياة نفسها . فالانسان هو هذه الاشـياء الصغيرة . والحيوان كذلك . ولكن ذرات الانسان او « بذور حياة » الانسان احسن او افضل من (بذور حياة) الحيوان .. ولكن كل انسـان وحيوان مكون من بذور الحياة او ذرات الحياة . او من الحيـاة البذرية او الحياة الذرية .

ولما ظهر الميكروسكوب ونظرنا الى الخليـة الحية الميتة .. او الحيوان المنوى للانسان والحيوان كانت النتيجة واحدة .. فتحت الميكروسكوب توجد حياة تروح وتجيء هذه الاشياء الصغيرة الحية

www.alkottob.com

هى « فلسفيت الحياة » وكل شيء فى الدنيا يبدأ من هنا .. ولا فرق بين الخلية لانسان أو حيوان أو نبات .. فالكل واحد . والله اراد أن يكون كل شيء واحدا . هذا الكل الواحد دليل على قدرة الله .. فالكل أمام الله صغير جدا .. فالانسان ليس أكبر من الحيوان ، والحيوان ليس ارفع من النبات .. الكل ليس الا كلمات أو مفردات فى قاموس الكون الأعظم من تاليف الله جل جلاله !

ومن ستة قرون فى اوروبا وصفوا الحيوان بانه آلة .. مجرد تكوينات فوق بعضها البعض تروح وتجيء .. انظر الى الكلب .. انه ظلك .. يمشى وراءك ولا يفكر فى هذا الذى يفعله .. والقطة .. والحيوانات المفترسة تراك فتهرب .. أو تراك فتهجم عليك دون أن تقدر أن كان الذى فى يدك عصا أو مدفع .. انها آلات مندفعة ـ فلا عقل لها !

واصبحت كلمة « الآلة » صفة للحيوان ، واهانة للانسان طبعا . حتى تقدمت صناعة الآلات فى القرن الثامن عشر .. واصبحت الآلات دقيقة ومعقدة . وقائمة على كثير من النظريات الهندسية . هنا فقط اصبحت كلمة الآلة شرفا للانسان اذا وصفناه بها . بل الانسان يتمنى لو كان آلة دقيقة مضبوطة . تعمل باتقان ولا تحابى احدا . واصبح المجتمع كله جهازا ضخما ، أو يجب ان يكون كذلك .. ولذلك لم يعد الحيوان آلة . ولم يصبح الانسان آلة ، وانما هو يحلم بان يكون فى استمرارها ونزاهتها !

وكانت فلسفة القرن الثامن عشر ردا مميتا عمليا على فلسفة رجل فرنسى اسمه « لا مترى » . هذا الرجل يقول ان الانسان

www.alkottob.com

والحيوان كليهما آلة . وانه لا فرق بين انسان وحيوان . وانما الحيوان كان من الممكن أن يكون انسانا لو أعطى الفرصة .. تماما كما ان الخادم كان من الممكن أن يكون السيد ، وان يكون السيد خادما لو تغيرت الظروف . اذن : أعطوا الحيوان الفرصة لكى يكون انسانا ايها الناس !

ويقول لامترى أيضا : الفرود : مثلا ما الذى ينقصها ؟ الكلام ! لو روضناها لو دربناها لقالت كثيرا كالانسان !

ويقول أيضا : ان هناك انواعا مختلفة من الحشرات اذا حطمتها دبت الحياة فى كل جزء من اجزائها .. الدودة تقسمها نصفين .. كل نصف يتحرك وكأنك لم تفعل شيئا .. ولكن الانسان اذا قطعت يده أو ساقه .. ماتت اليد والساق .. واذا انكسر راسه او نزعت قلبه مات .. ومعنى ذلك أن حياة الانسان اضيق نطاقا .. وانه اسهل كسرا وموتا من أحقر الحشرات .

والذى قاله هذا المفكر الفرنسى ليس دقيقا . ولكنه أثار الكنيسة والغضب المجتمع السياسى فى فرنسا واستدعاه الامبراطور الالمانى فريدريش الاول وطلب اليه ان يبقى بعيدا عن الغضب الفرنسى على كل المستويات . والمفكر لامترى لا يعرف أن عددا كبيرا من العلماء حاول يائسا أن يعلم الفرود كيف تنطق ، فلم يفلحوا . فالفرود عاجزة تماما عن الكلام .

ثم ان ما تحتاجه الدودة من مراكز عصبية بسيطة يجعلها تتحرك

www.alkottob.com

يمينا وشمالا بنصفها أو ربعها .. ولكن الانسان جهاز شديد التطور وشديد التعقيد .

وكانت وفاة هذا الفيلسوف نكتة ضحكت لها أوروبا وشمتت فيها الكنيسة وقتا طويلا . أن وفاته تذكرنا بوفاة الخديو المصرى اسماعيل فقد جلس هذا الكاتب مع بعض أصدقائه . وكانت أمامه قطيرة محشوة بالتفاح وزجاجة من الشمبانيا . وكان يملأ فمه من الشمبانيا وتراهن مع أصدقائه أنه يستطيع أن يدخل القطيرة فى فمه دون أن تسيل قطرة شمبانيا من بين شفتيه .. وفعلها مرة وفى المرة الثانية ، مات مختنقا اما الخديو اسماعيل فكان يضع زجاجتين من الشمبانيا فى فمه وقد استلقى على ظهره وجعل يفرغ الزجاجتين فى وقت واحد — ومات هو ايضا !

ولكن الشعور العام فى أوروبا فى العصور الحديثة : ان الحيوان اكثر نبلا من الانسان — منتهى اليأس من الانسان !

ولم يكن الفيلسوف الالمانى المتشائم شوبنهور مبالغا عندما فكر قبل ان يموت بقليل ان يلقى بأمواله فى البحر ولما سئل عن ذلك قال : ان احدا لا يستحقها من بعدى !

ولما سئل مرة اخرى : ولا حتى كلبك !

فنهض واقفا : انا الكلب حقيقة . فقد نسيت هذا الذى اخلص لى فى كل الظروف !

ثم اوصى بأمواله كلها الى كلبه !

www.alkottob.com

والفيلسوف الالمانى نيتشه كان يحب الفتاة اليهودية سالومى وكان ينافسه فى حبها العالم اليهودى فرويد والشاعر الالمانى ريلكه .. ولم يتفق الثلاثة على شىء لانهم جميعا مختلفون تماما .. واخيرا قرروا ان يقيموا لها حفلة تكريم .. فاتوا بعربة واركبوها العربة واعطوها كرباجا .. ثم سحبوا العربة .. كانهم خيول او حمير لها !

وعندما ذهب الفيلسوف نيتشه الى مدينة ميلانو الايطالية راى فى ميدانها العام حصانا جميلا .. فراح يجرى وراءه ويصرخ ويعانقه : يا انبل كائن يمشى على اربع او على اثنين !

www.alkottob.com

هو يسقط كالذين يطيرون !

« لو كان يقول اى شىء » — ولم يقل حيوان الكانجرو اى شىء . وانما ظل الكابتن كوك الذى اكتشف استراليا وعشرات الجزر يتامل هذا الحيوان العجيب الذى ليس له نظير فى القارات الاربع . وكتب فى مذكراته يقول : له راس غزال وله ذيل طويل واذا مشى فانه يقفز كالضفدعة .

ثم مضى الكابتن كوك فى وصف هذا الحيوان . كيف ياكل وكيف يشرب . ورغم قدرته الهائلة على الملاحظة فانه لم يتنبه الى ان هذا الحيوان يحمل صغاره فى جيب فى بطنه . ولم يعرف ان هذا الحيوان الذى يصل طوله الى عشرة اقدام عندما يضع صغاره فان الواحد منها يكون طوله بوصة فقط !

ولم يكن هذا هو الحيوان الوحيد فى استراليا او القارة الجديدة ، وانما هناك حيوانات اخرى انتفرضت مثل هذا الحيوان الذى كان يصيده البدائيون لياكلوا لحمه ويصيده الاوروبيون ليسلخوا

www.alkottob.com

جلده .. والبدائيون هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم . ويقال ان سبب هذه التسمية أن هذا الحيوان عندما يولد فانه ينطق كلمة : كانج .. وعندما يموت فآخر كلماته كلمة : رو ..

ومعنى ذلك أن البدائيين يريدون أن يقولوا أن الحيوان يولد ليموت! ـــ هذه العبارة قالها الفلاسفة الوجوديون فى خمسينات هذا القرن وصفقنا لهم طويلا لاكتشافهم هذه الحقيقة المؤلمة !

وعندما زرت حديقة الحيوانات فى مدينة سيدنى باستراليا لم أجد الا ثلاثة من الكانجرو . وسألت ان كان هذا الحيوان قد أصبح نادرا . فكان الرد نعم . حتى أن جزيرة فى مدخل خليج ســـالت قنسنت اسمها « جزيرة الكانجرو » أصبح الآن اسمها : جزيرة الكانجرو سابقا .. أو جزيرة الـــ .. حيوان الذى كان هنا !

* * *

وأهم ما جاء فى مذكرات الكابتن جيمس كوك فى سنة ١٧٧١ هذه العبـــارة : انشـــغلنا جدا بهذه الحيوانات الغريبـــة والطيـــور العجيبة ومن أين جاءت وكيف جاءت .. ولكن لم يتسع وقتى لفهم أشياء كثيرة فمن الاشياء التى لاحظتها أن حيوان الكانجرو هذا اذا مرض امتنع من الطعام ، وانزوى وحده وأبعد صغاره عنه .. وأحيانا تجىء انثاه أخريات وتتولى كل واحدة اطعام هذه الصغار .. واذا أحس هذا الحيوان بأنه سوف يموت ، فانه يحفر الارض بقدميه الاماميتين .. وكلما كانت الحفرة عميقة كان اقترابه من الموت .. فاذا مات فانه يتمرغ فى حفرته .. ولا يسكن تماما الا وقد

www.alkottob.com

انهال عليه التراب كله .. كأنه حفر قبرا ثم دفن نفسه فيه تماما .»

والكابتن كوك يكرر ما شغل العلماء والاطباء من الوف السنين. فهم جميعا كانوا ينظرون الى الحيوان بهيام ويقارنون بينه وبين الانسان . وعندما يريدون أن يعرفوا الانسان يفتحون بطن الحيوان. يريدون ان يعرفوا جلد الانسان فيسلخوا جلد الحيوان . يريدون أن يعرفوا ما الذى يضخه قلب الانسان فيفتحوا قلب الحيوان .. ان العالم الفرنسى هارفى عندما اهتدى الى الدورة الدموية كان ذلك عن طريق تأملاته وتشريحاته للحيوانات.. والعالم الكبير مالبيجى عرف التنفس عند الحيوان عندما اخذ يكتم انفاس الحيوان . بل انه قد اهتدى الى الكريات الحمراء عندما راى ذلك فى حيوان القنفذ .وكان يظن أن هذه الكريات هى انواع من الدهن .. ثم انه نقل دم الكلاب بعضها الى بعض ، قبل أن ينقل دم الاغنام الى الانسان .

وعندما اهتدى الانسان فى اوائل القرن الثامن عشر الى الجهاز العصبى كان ذلك عن طريق تعذيب الحيوانات بالابر والنار ، ليلا ونهار .. هنا ادرك الاطباء والعلماء ، ان الاجهزة التى تحرك الانسان هى نفسها التى تحرك الحيوان .. وان للجميع اعصابا وان هذه الاعصاب تمسك كل اعضائه وعضلاته .. وتؤثر على وظائفه — يكفى ان ننظر الى هذه الحيوانات !

* * *

ولا شىء يدل على طموح الانسان ورغبته المستمرة فى العلو والتخلص من متاعب المسافات بين الناس وبين البلاد ، مثل اعجابه بالطيور وخفتها ورشاقتها فى الحركة وركوب الهواء .. كل

www.alkottob.com

النقوش القديمة تدل على هذا الاعجاب بالصقور والنسور . ولكن الانسان نفسه لم يعجب بالذباب مع انه اعجوبة الحشرات . ! لان الذباب مرتبط فى ذهنه بالقذارة وبانه يضايقه عند النوم والاكل. واذا نظرنا الى تكوين الذبابة لوجدنا انه يفوق فى اعجازه تكوين النسر .. ان جناح الذبابة تحفة هندسية حيوية . ان سرعة الذبابة فى الطيران والانقضاض تذهل اعظم المهندسين . فسرعتها لا تتناسب مع طول الاجنحة ومع جسمها . ولكن احدا لم يلتفت الى ذبابة . وانما كان الانسان مشغولا بالطيران .. وعند الاغريق ، وفى اساطيرهم الرائعة حكاية ديادلوس .. كان فنانا قادرا على صناعة الكثير من الادوات التى استخدمها الفلاح والطبيب والمهندس .وهو الذى اخترع شراع السفن . هو ايضا الذى اخترع الدفة والسنارة والمصيدة . وكان عبقرية عظيمة . يكره ان ينافسه احد . ويبدو ان له ابن اخت سوف يكون اعظم ، فالقى به من النافذة ومات الشاب قتيلا . وهرب العبقرى الشرير الى احدى الجزر . وصنع لاحدى الملكات سجنا لا يمكن أن يهرب منه احد ، لكثرة سراديبه . ولكنها لم تامن اليه . وخشيت ان يهرب ويصنع سجنا مماثلا فى جزيرة اخرى ولملكة اخرى . فحبسته فى هذا السجن . واستطاع ان يصنع لنفسه ولابنه الصغير ايكاروس جناحين من الريش الطويل والصق الريش بالشمع . وهرب الاب وابنه .. ويقال ان ابنه ارتفع فى السماء فاذابت الشمس الشمع من جناحيه وسقط الابن ميتا .. أما الاب فنزل فى احدى الجزر . ويقال انهم وجدوه ميتا ووجدوا حبالا طويلة فى عنقه .. ووجدوا فى هذه الحبال عشرات من النسور .. يبدو انه كان يريد هذه النسور أن تحمله .. ان تطير به الى مكان بعيد . ولكن النسور حملته بعض الوقت وشدته جاذبية الارض ، فمات وماتت النسور !

وقد حاول أحد علماء الاندلس واسمه عباس بن فرناس أن يطير

www.alkottob.com

هو ايضا . وكانت محاولته فى القرن التاسع الميلادى . وغطى جسمه بالريش والقى بنفسه من جبل .. وحمله الريش قليلا .. ثم سقط ميتا وارتفع الريش فى الهواء ..

ولم تمت فكرة الطيران عند الانسان وانما تجددت فى كل العصور .. ففى القرن الثامن عشر فى فرنسا ، حاول كثيرون ان يستخدموا بالونات الورق فى الطيران . ولم يفشلوا على الورق بالون الحرير . وارتفع الورق وهبط على مدى قريب . وفى سنة ١٧٨٣ ارتفع من باريس بالون ورق . وهبط البالون بعد مسافة عشرين كيلو مترا . ولم يكد الفلاحون يرون البالون الطائر ، حتى ظنوا ان القمر نفسه قد سقط من السماء . واقتربوا منه . ومزقوه . وربطوا البالون المحطم فى ذيل احد الخيول ، وراحوا يتقلونه بين القرى ، احتفالا بالنصر . فاصدرت الحكومة الفرنسية بيانا تصف فيه هذه التجربة وتؤكد اهميتها للانسانية . وانه لا خوف على أحد ولا ضرر نه فى ماله ومنزله .

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٨٣ ارتفع بالون اكبر ومن الورق ايضا . وكان صاحب البالون اكثر خيالا واعنف طموحا . فعلق فى البالون صندوقا من الخشب . وفى الصندوق خروف ودجاجة وبطة . وارتفع البالون . ومضى تحمله الريح بعيدا . ثم هبط . ونزلت الحيوانات منه سالمة .. وبعد ذلك بسنوات ركب البالون بعض المغامرين وعبروا به المانش . واتجه الانسان الى اساليب وحيل جديدة فى صناعة الاجنحة الهندسية لكى تطير به من مكان الى مكان ابعد واسرع من الطيور نفسها . ويكفى ان ننظر الى ماركات شركات الطيران العالمية لنجد ان هذه الماركات ليست الا مباراة رائعة فى تصوير معنى الطيران والطيور . فكل هذه الماركات تشير الى خفة الحركة ورشاقتها

www.alkottob.com

وسلامتها هبوطا من الجو وصعودا اليه .. كانها طيور آمنة مطمئنة لا خوف عليها ، ولا خوف منها على أحد !

فالاعجاب بالطيور وتقليدها ومحاولة فهمها ليمكن فهم الانسان هو هدف العلماء من الوف السنين . وليست الطيور وحدها التى يريد الانسان أن يتخذها وسيلة لفهم الانسان . وانما كل الحيوانات . ومن اقدم العصور كان الملوك يهدون اطبـاءهم اناسـا مجرمين ليجربوا فيهم المشارط والسكاكين . فالملك كان يفتح السجون للطبيب الخاص ليختار واحدا من هؤلاء النزلاء ليشرح جثته ويعرف ما هى هذه الحياة .. ما القلب ما الكبد ما الامعاء .. ما المعدة .. وكان يحدث ذلك فى مصر الفرعونية وفى فارس القديمة ..

وكان رجال الدين فى كل العصور يحرمون قتل الحيوان بقصـد البحث العلمى . وانما يرون القتل للصيد او للاكل ممكنا .. أما اسالة دم الحيوان وتقطيع أطرافه ، مهما كان الهدف نبيلا فشىء حرام . ولعل الفنان العظيم ليوناردو دافنشى قد هرب الى روما لهذا السبب . فقد كان يريد أن يشرح جثة خنزير أو بقرة ليعرف تكوين السيقان والراس . وكان يعلم أن رجال الدين يرفضون هذه النظرة العلمية الواقعية للاشياء . ولا يرون فيها الا خروجا على الدين ..

وعندما انتشر القتل بالسم كان الملوك ، وخصوصا لويس الرابع عشر ، يطلبون الى الاطباء أن يذوقوا الطعام قبلهم .. واحيانا يموت الاطباء ، ثم لجأ الملوك الى استخدام المجرمين واللصـوص الذين يعتقلونهم فى مكان خاص بالقرب من القصـور .. واخيرا اهتدى

www.alkottob.com

الاطباء الى وسيلة لانقاذ ارواحهم هم ، فاتوا بالحيوانات يطعمونها ما يقدمونه للملك .. وكان السم احيانا شديدا فيطوى الحيـــوان تحت قدمى الملك .. فيرفض الملك الطعام ايامـا من شدة الخوف ..

* * *

ومن حوالى مائة سنة فقط ، ظهر شعور انسانى يغمر اوروبا كلها ويدعو الى الرفق بالحيوان والرحمة به . فهو ايضا يتالم ويتعذب مثلنا . والذى يرحم الانسان ، هو نفسه الذى يرحم الحيوان . والذى يقسو على الحيوان هو نفسه الذى يعذب الانسان . ولذلك يجب ان نتواصى بالرحمة بهذه المخلوقات لنكون رحماء بانفسنا .. والاطفال يجب ان نعلمهم حب الحيوانات ليحبوا بعضهم بعضا .

بل اننا راينا الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو يدعو الى ان نعلم الاطفال الرحمة بالحيوان حتى اذا كبروا كرهوا القسوة على احد من الناس ..

وقبل روسو بعشرين قرنا اقام الملك الهندى اشوكا اول مستشفى للحيوانات المريضة ، وجعل علاجها اجباريا . وكان يقول :لا اصدق ان ابا يحب اطفاله ، اذا راى كلبا مريضا ولم يساعده بلقمة او قليل من اللبن .. لا اصدق ان الام لا تاكل بنيها ، اذا رات هرة تلد ثم القت عليها بالتراب ، لانها تتشاءم من منظر الحيوان وهو يلد !

وفى ايام الحروب كانت تقام الحظائر للخيول . ولكن اذا مرض حصان تتلوه . حتى لا تنتقل عدواه الى بقية الخيول !

www.alkottob.com

حتى كانت سنة ١٧٤١ . فى هذا العام أقام رجل فرنسى اسمه كلود بوجيلا مدرسة يعلم الناس فيها كيف يعالجون الحيوانات . مدرسة للطب البيطرى . صحيح كانت هناك محاولات مماثلة وضيقة النطاق فى هولندا او سويسرا أو بروسيا . ولكن هذه المدرسة الفرنسية اكتسبت شهرة عالمية . وجاءها طلاب الطب والعلاج من كل مكان . وكانت هذه المدرسة تنصح الطالب : بأن يكون انسانا فى معاملة الحيوان .. وان يؤمن ايمانا مطلقا بأن هذا الحيوان ، لاسباب لا نعرفها ، عاجز عن الكلام .. اى عاجز عن الشكوى من العطش والجوع أو الالم .. وان هذه الحيوانات تحب من يحبها — والكلب اكبر دليل على ذلك . وأن فى هذه الحيوانات شهامة ونبلا — الحصان اقوى دليل على ذلك ..

وظهر من هذه المدرسة عدد كبير من الاطباء لعلاج الحيوانات التى تنفع الانسان : الحيوانات التى ناكل لحمها أو نبيع جلدها او تجر العربات أو تحرس له العربة والحصان والبيت ..

ولا تزال فى العالم عشرات الالوف من مستشفيات الحيوان .. والوف المجلات للحيوان .. ومئات الشركات تعد الطعام الخاص للحيوان والطيور . وعشرات من اصحاب الملايين يتركون ثرواتهم للحيوان — حبا فى الحيوان ، أو كرها فى الانسان !

ويوم ارتفعت الكلبة لايكا فى احدى سفن الفضاء تدور حول العالم ثارت جمعيات الرفق بالحيوان . تقول : وحشية .. جريمة!..

مع ان فى المعامل فى كل مكان الوف الحيوانات تموت فداء للانسان . ولكن هذه القلوب الرحيمة بالكلبة لايكا نسيت الانجاز العلمى

www.alkottob.com

المظيم الذى رفع الكلب تمهيدا لارتفاع عشرات من رواد الفضاء ..
ماتت الكلبة لايكا ودفنت فى قبر من نوع غريب ، قبر يدور حول الناس وعلى ارتفاع مئات الكيلو مترات من الارض وبسرعة عشرات الالوف من الاميال فى الساعة ..

وكانت هذه الجنازة العجيبة التى اشترك فيها كل سكان الارض :
جنازة حارة والميت كلب !

www.alkottob.com

لو نام الأرنب قليلاً لأدركته السلحفاة !

* فى القرن الثامن عشر تأكد لدى الناس ذلك المعنى الذى جاء فى الكتاب المقدس : ان الناس ولدوا ليندموا على أنهم ولدوا .. فقد كانت الحياة قاسية : ارهاق ومرض وموت بعد ذلك. ولا يتسع وقت الانسان ليسأل نفسه : صحيح ما معنى هذا كله ؟ ماذا أخذت ؟ ماذا أعطيت ؟ ما الذى يتبقى منى لأحد من الناس . والجواب عادة : لا شىء ! كأن الناس ولدوا ليكونوا بعد ذلك : لا شىء ، كما كانوا قبل أن يولدوا — انها نظرة مثل الحياة ومثل مداخن المصانع الجديدة: سوداء ! ..

وفى سنة ١٣٨٤ أعلن البابا كليمنس السادس أن عدد الاوروبيين الذين أبادهم « الموت الاسود » ذلك المرض اللعين قد بلغ ٤٢ مليونا!

ولم يكن المرض هو الحاصد الوحيد للأرواح . لانه اذا لم يكن مرض اخترع الانسان الحروب . واذا لم تكن حروب اخترع الانسان

www.alkottob.com

الكراهية التى تؤدى الى القتل ـــ اثنان من أولاد آدم قد فعلا ذلك وكان عدد سكان الأرض أيامها ستة اشخاص !

كما أن حرب المائة عام هدت حيل فرنسا .. وحرب الثلاثين عاما مزقت قلب المانيا ..

وفى انجلترا جاءت حرب الخمسين عاما فأطاحت بالكثير من الرجال والشباب ..

ولم تفت هذه الظاهرة عددا من المؤرخين ، الذين وضعوا سائقا على ساق وقالوا : ان هذا يحدث كل عشرسنوات ، ويجب أن نتوقع ذلك ، فالنساء يلدن والرجال يحصدون ماوضعته النساء .. وبذلك يظل عدد سكان العالم رقما ثابتا . انها حكمة السماء منذ نزل ثمانية من البشر من سفينة نوح فوق جبل أرارات !

ولكن ما هذا الذى يجرى بين الناس .. انهم يتزايدون رغم ذلك، والطعام لا يكفيهم ، ولابد أن يجد الانسان وسيلة ليكون هناك طعام من النباتات ومن الحيوانات .. ليكون هنـاك كسـاء وغطـاء ومشروبات ومساكن ليوالى الانسان زيادة عدده ورفاهيته ، ويموت من أبنائه أقل عدد ممكن .

وفى احدى القصص التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر يقول الكاتب : لم نعرف بالضبط كيف يجىء هؤلاء الاطفال ، أن الرجال عادة يخطئون فى عدد أولادهم الشرعيين وغير الشرعيين .. ولكن

www.alkottob.com

الامهات لا يخطئن ، ويستحيل عليهن ذلك . فالام تحمل طفلها تسعة شهور ، ولكن الرجل يحمل ذلك الطفل ساعة او اقل من ذلك كثيرا ، فالرجل لايدرى به ولكن الام تعرف ذلك جيدا ولن يتحمس الرجال لان يكون عندهم أولاد اقل .. ولكنهـــا المـــرأة هى التى يجب ان تفعل شيئا ـــ ن نساء الاغريق ضربن ازواجهن لان الرجال يخلون الفراش دون ان يضعوا فى شعورهم شيئا من العطر ، او على اجســـادهم شيئا من الزيت الذى يكسب الرجل حيوية وقدرة على امتاع المرأة .. فلتفعل المراة شيئا .

والمعنى هو ان الكاتب يطلب الى المـــراة ان ترئس الرجل حتى لايقربها وحتى لايزيد عدد الناس فى كل مكان .. ومن حقها أن تفعل ذلك فهى التى تتعب وهى التى تتعذب . أما الرجال فلا يشعرون بشيء .. وهذه القصة الانجليزية تذكرنا بموقف قديم قبل ذلك بالف سنة . عندما اختلف أبو الاســـود الدؤلى مع زوجته على الطلاق وحضانة الاطفال قالت الزوجة أمام القاضى : انا تعبت انا حملت اطفالى . انا أولى بهم .. قال الزوج : انا حملت الطفل قبل ان تحمليه انت . قالت الزوجة : انت حملته فى ظهرك خفيفا ، وانا حملته فى بطنى ثقيلا .

وحكم القاضى للزوجة بحضانة الاطفال !

واستطاع قسيس انجليزى ان يحدد بالضبط مشكلة تزايد السكان فى العالم انه القسيس مالثوس . وكان ذلك سنة ١٧٩٨ عندما أصدر كتابا بلا امضاء .. انه يقول : ان الطعام فى العالم يتزايد بصورة حســـابية : ١ ـــ ٢ ـــ ٣ ـــ ٤ بينما يتزايد عدد ســـكان العالم بصورة هندسية ٢ ـــ ٤ ـــ ٨ ـــ ١٦ وهكذا .

www.alkottob.com

ومعنى ذلك أن الطعام لن يكفى الانسان ، وان الانسان يعيش ويكبر ليموت جوعا ، الا اذا توقف الانسان عن النمو ، او الا اذا ضاعف طعامه وشرابه بنفس السرعة ، ويبدو أن هذا غير ممكن فالمطلوب من الانسان أن يتوقف عن التكاثر .

وهذا القسيس يقول : وليس من مصلحة الانسان أن يوفر الطعام الكثير لانه كلما زاد الطعام تزايد عدد الناس فكأن الطعام يؤدى الى النتيجة غير المطلوبة .. فالافضل هو الا نزيد الطعام حتى يموت الناس من الجوع . ويكون الجوع هو أول منظم للنسل ومحدد له، او يبحث الناس عن طريقة لانقاص عددهم .

يقول القسيس مالثوس : صحيح ان الارنب والسلحفاة لو دخلا فى سباق فمن المؤكد أن الأرنب هو الذى سوف يصل الى الهدف أسرع . لا شك فى ذلك ولكن لو طلبنا من الأرنب ان ينام قليلا فى الطريق فان السلحفاة سوف تصل قبل الارنب ، او تصل معه فى وقت واحد !

وسارعت الهيئات الدينية بتفسيرات جديدة لتحديد النسل ، فالانسان حيوان تحكمه الغريزة ، ولذلك لا يستطيع ان يحدد عدد صغاره . ولكن الانسان يتصرف بالعقل ولذلك يجب أن يستخدم عقله ، وقال القساوسةفى أوروبا فىذلك الوقت : الطهارة يارجال.. الطهارة . فالذى يعف عن الجنس هو الذى يجد الرغيف فجزاء العفة ان تجد الطعام والشراب .. والنزوات عقابها الجوع !

اما رجال الصناعات وأصحاب رءوس الأموال فقد انزعجوا ،لان

www.alkottob.com

تحديد النسل معناه ان يصبح عدد العمال اقل . فاذا قل عددهم ارتفعت اجورهم ، واذا ارتفعت اجورهم نقص ما يكسبه اصحاب المصانع والمتاجر .. ولذلك وقفوا ضد التسيس مالثوس الذى يدعو الى تخريب بيوت المال فى اوروبا كلها !

وقال السياسيون المحافظون : بل يجب ان يحدد الناس نسلهم، والا زاد عدد الجياع ، فاذا زاد عددهم قاموا بثورة كثورة فرنسا، واطاحوا بالملكية فى انجلترا . وقلبوا الاوضاع واختلت الموازين والقيم الاجتماعية .. ولذلك فنظرية التسيس مالثوس هى اعظم ما اكتشف الانسان فى كل العصور !

واخذت الجامعات تلقى عليه نياشينها العلمية ، وتطلب اليه ان يحاضر فيها ، فهو الذى وضع اصابعه على داء البشرية ، واقوى قوى التاريخ الانسانى !

ولو نظرنا الى عالم الحيوان لوجدنا تسيلا مخيفا ، ففى عالم الاسماك مثلا : نجد ان انثى سمك الراجة تضع اربعين الف بيضة بينما تضع سمك موسى تسعة ملايين بيضة والسلامون تضع ثمانية وعشرين مليون بيضة .. وسرطان البحر الامريكى يضع مائة مليون بيضة ، وهذا يتكرر خمس مرات فى السنة .

وفى عالم الحشرات : نجد ان ملكة النحل تضع فى السنوات الثلاث الاولى خمسة ملايين بيضة .

اما الضفدعة فانها تلقح ٥٤ الف مليون بيضة فى السنوات الثلاث

www.alkottob.com

الاولى من حياتها ، وربما كان هذا هو السر فى ان عدد الضفادع فى العالم يتوازن دائما ـــ هناك الكثير فى كل مكان فى اى وقت !

***

وهناك مسافة كبيرة جدا بين عدد البيض وعدد البيض الذى تم اخصابه .. وهذه المسافة تصبح أوضح وأكبر فى الانسان ، فعدد الحيوانات المنوية عند الرجل طول حياته تقدر بالوف الملايين وعدد البويضات عند المراة مئات الالوف .. ولكن لابد من حيوان واحد من الرجل لبويضة واحدة من المراة ليكون هناك طفل .

ولان المراة لاتقوى على حمل اكثر من طفل فان هذه الحيوانات المنوية والبويضات لا ضرورة لها .. وفى عالم الحيوان والحشرات تجد أن الذكر ليست له اهميته . فاذا قتل او اكلته الانثى فان الطبيعة لاتخسر شيئا بالمرة ، بل ان الملايين من البويضات المخصبة تحل محله بسرعة ، فالذكر ليس شيئا هاما لكى تستمر الحياة .

ولو كانت كل الحيوانات المنوية عند الرجل تلتحم بكل بويضات المراة لكان عدد سكان الأرض ضعف هذا العدد بالوف الملايين من المرات . ولكن انثى الرجل هى التى تحدد النسل . ومن المعروف ان المراة لاتستطيع ان تحمل اكثر من عشرين مرة فى العمر كله .. وهذه هى الحالة النادرة ، ولكنها عادة لا تتجاوز الثلاثة أو الاربعة الا قليلا .. وهذا ينطبق ايضا على كل الحيوانات الاخرى التى يأكلها الانسان !

www.alkottob.com

والاغنياء وحدهم هم الذين انشغلوا كثيرا بعدد اطفالهم وبالجوع. فهم لا يريدون لاطفالهم ان يجوعوا . اما الفقراء فان الجوع لا يشغلهم . لانهم الجوع نفسه ، والفقراء كلما اشتد بهم الجوع ، احسوا باقتراب الموت ، واصيبوا بحالة نهم جنسي ، فيزداد عددهم .. لهذا زاد عدد الفقراء الذين ازدادوا فقرا !

ولابد ان ينشغل الناس عموما بالبحث عن موارد للطعام ،لتوسيع رقعة الأرض المزروعة عشبا ، أو بالهجرة الى بلاد اخرى ، الايرلنديون هربوا من ارضهم القاحلة الى أمريكا ، الانجليز رفضوا ان يتركوا ارضهم ، ولذلك زاد عددهم وزادت مصانعهم ، ولكن حدث شيء غريب : زادت الاقمشة أمام الناس ، فكانوا يجدون الكساء ولا يجدون الغذاء وقالوا عن انفسهم : اننا وجدنا الشيء الذى يدفيء الجلد ، ولا يدفيء المعدة !

ولكن الانجليز وجدوا الايدى الكافية لادارة مصانعهم ، وكانت هذه المصانع للنسيج ، ولم يتوافر لديهم نفس هذا العدد من مصانع الطعام .

بدأ الانجليز — مثلا — يستوردون طعامهم من الخارج ، اما ملابسهم ، فمن الداخل .

وبعض اصحاب الاغنام ارسلوها الى الارجنتين حيث الجو افضل والطعام اوفر ، وبعضهم ارسل مئات الاغنام التى اصبحت مئات الالوف ، الى استراليا ..

وكانت المشكلة هى نقل هذه الحيوانات بعد ان تعبت وسمنت الى اوروبا ، ولكن اكثر هذه الاغنام كان يموت فى الطريق وكانت امراض الحيوانات تتفشى بسرعة — وتهلك سفنا بكملها .

www.alkottob.com

وفى ذلك الوقت اخترع رجل استرالى سفينة تنقل لحوم الاغنام والابقار الى اوروبا ، وكانت السفينة تقوم بتبريد اللحوم ، وكان ذلك انقلابا فى صناعة التغذية ولكن النـــاس فى أوروبا لم يستسيغوا اللحوم الباردة .. وكانت هذه اللحوم طعام الفقراء . اما الاغنياء فيفضلون اللحوم الحية .. يرونها ويذبحونها ..

ولكن رجلا فرنسيا اسمه تيبيـــه سنة ١٨٧٧ اخترع « ثلاجة » وكانت الثلاجة على شكل سفينة ، فهذه السفينة تنقل اللحوم مجمدة من الارجنتين الى فرنسا وانجلترا . وكانت رحلة السفينة تستغرق مائة يوم ، وتظل اللحوم متجمدة سليمة . وكان ذلك هو اعظم اختراع انقذ أوروبا كلها من الجوع. .وانتشرت الثلاجات العائمة فى الموانى الاوروبية والموانى الامريكية ، وانحلت مشكلة اللحوم الى حين وبقيت اللحوم المجمدة طعام الفقراء !

واذا كانت الثلاجات قد انقذت الفقراء فان الآلات الحديثة التى ظهرت فى ذلك الوقت قد خربت بيوت الفقراء فالآلات البخارية التى استخدمت فى المواصـــلات وفى المصـــانع قد استغنت عن الايدى العاملة ، وكان اصحاب المصانع حريصين على الآلات لانها تختصر الايدى العاملة وتوفر لهم المال ، وظل العداء قائما بين الآلات وبين الايدى العاملة .. ولا يزال ..

***

وفى ذلك الوقت من اوائل القرن التاسع عشر ظهر سباق الخيل . وكان الانسان لايريد ان يصدق ان القطار أسرع من الحصان ، ولذلك بدأ الانسان ينظم مسابقات الخيول ، وقبل تنظيم المســـابقات كان يحرص على انتقاء احسن سلالات الخيول . واحسنها بالطبع تلك

www.alkottob.com

التى جاءت من اصل عربى ، وهناك خيول اخرى مولدة : اضخم واثقل واطول سيقانا واضخم عنقا ورأسا ، ولكن افضل الخيول جميعا هى العربية الرشيقة .

وفى الوقت الذى اخذت انجلترا بلعبة سباق الخيول ، اتجهت اسبانيا الى مصارعة الثيران ، حتى ثيران اسبانيا هى الاخرى قد جاءت من الشرق . بعض هذه الثيران مصرى فرعونى .

والقرن التاسع عشر يعرف اسماء عدد من الخيول قد غيرت الحياة الاجتماعية ، فهناك الحصان الشهير « دارلى » الذى كسب ثلاثين سباقا وفاز بعشرين كاسا فضية ، ولم يسبقه حصان واحد . . بل ان ابناءه من الخيول وهى معروفة الاسم ، قد بلغ عددها ٣٤٤ حصانا ، قد عادت الى اصحابها بمليون جنيه ! .

واصبح من المألوف جدا فى أوروبا كتابة تاريخ حياة الحصان ، أصله ومن اين جاء ، وأولاده بالاسم ، وأماكنهم وأحجامهم ، والسباقات التى اشتركت فيها .

وفى انجلترا تأسس نادى الجوكى سنة ١٧٥٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاما بدأ اللورد دربى السباق المشهور المعروف باسمه حتى الآن . . وكان هذا السباق متعة كبرى وفرصة دولية لتشترك أجمل وأقوى الخيول فى السباق والمراهنة .

وربما كان نابليون بونابرت هو أول من اخترع فكرة أرض السباق، وان تكون الأرض ناعمة وان يكون الطريق امام الحصان ممهدا . فقد ارسل له أخوه لوسيان خطابا يستأذنه فى اقامة سباق العربات. ولكن نابليون اعترض على سباق العربات التى تجرها الخيول لانها لعبة افريقية قديمة ، وان العربة تعوق الحركة وان الافريق كانوا

www.alkottob.com

يتسابقون بالعربات لانهم كانوا يحاربون من فوق العربات وبها .. أيام على أيام نابليون فكانوا يحاربون من فوق ظهور الخيول ، فالسباق بالخيول هو مناسبة للتدريب على القتال ولذلك . أمر نابليون بعمل أرض للسباق وتسويتها وتغطيتها بالعشب فيتمكن الحصان من الانطلاق ، واذا سقط من فوقه الفارس فلا تكون اصابته خطيرة !

وانتشرت لعبة السباق فى أوروبا كلها ، واصبح الاغنياء يتباهون بان لديهم أحسن الخيول واكثرها عددا وبان لديهم اصطبلات فخمة .. واذا كان الاغنياء قد انشغلوا بتربية الخيول فان الفقراء قد وجدوا لهم لعبة اخرى : السيرك .. ففى السيرك تلعب الخيول والحيوانات الاخرى ... فالسيرك متعة ارخص ، وفى نفس الوقت فرصة لان يتفوق الفقراء على الاغنياء بالبراعة والصبر فى مواجهة الاسود والنمور وركوب الخيول .. والتصفيق للاعبين المهرة : اى للفقراء من أمثالهم ..

وعندما يتعب الفقراء من الفرجة على السيرك ، فانهم يذهبون الى حديقة الحيوانات ، ففيها الحيوانات من كل نوع جاءت من آخر الدنيا لتكون جاهزة لتسليتهم فى اى وقت !

« وبعد ذلك يذهب الناس الى بيوتهم سعداء بما راوا ، وبانهم قد عوضوا ما فاتهم من امتلاك الخيول ، بالنظر اليهم والاعجاب باصحابها .. وينامون فى الليل ، ويولد الأطفال فى الصباح » — كما يقول الكاتب الايطالى البرتو مورافيا .

ففى احدى قصص مورافيا يجىء الرجل الذى يعد السكان ويسأل : كم عدد الأطفال عندكم ، فتقول الأم : عشرة .

www.alkottob.com

ويقول موظف التعداد : تقولين عشرة ؟ .. ياه ! عشرة ؟

ويرد الزوج : نعـــم يا ســـيدى عشرة .. ليس عنـــدنا راديو ولا تليفزيون ، ولذلك فنحن ننام فى ساعة مبكرة !

ـــ معقول .. ويمضى الرجل يدق ابواب البيوت الاخرى عينه على الباب والعين الاخـــرى على الســـطح ، ليرى ان كان عندهم تليفزيون !

وفى نفس الوقت تتزايد الحشرات بالوف الملايين ويصرخ الانسان من الجوع فى آسيا وافريقيا !

www.alkottob.com

نظرية التطور !
رد داعتبار الحيوان !

كانت محاكمة العصر كله . فقد اجتمع العلماء ورجال الدين وكانت الراهبات يمسكن المناديل ويشرن بها الى ذلك القس الوسيم الرشيق الذى جلس منحفزا ليدافع عن الدين عن كل سطر جاء فى الكتاب المقدس . عن ان الانسان الأول كان اسمه آدم . وان البشرية كلها قد جاءت من سلالته .. وامام هذا القس واحد من العلماء اسمه هكسلى جاء يدافع عن نظرية تقول ان الحيوانات تتطور .. وربما كان الانسان اصله قرد . وليس ذلك بعيدا فالتشابه شديد جدا بينهما .

دخل العالم الكبير وجلس فى مواجهة القس . فقال له القس متسائلا مستنكرا : أريد أن اعرف منك ان كان جدك لأمك او لأبيك قردا ؟ ..

وضحك الحاضرون وهنأوا بعضهم البعض . ولكن العالم الكبير

www.alkottob.com

قال له : يشرفنى أن يكون جدى من الناحيتين قردا .. ولا يشرفنى أن يكون واحدا مثلك يستخدم ذكاءه وعقله فى مناقشة قضـــايا علمية لا يفهم فيها شيئا !

وانتهت المناقشة فجأة بانتصار العالم الكبير هكسلى . أى انتصار لفلسفة دارون التى كانت قد هزت الفكر والحياة فى أوروبا كلها فى منتصف القرن التاسع عشر !

وعندما سمع دارون هذه المناظرة قال : كان من السهل جدا أن أموت لمجرد أن أتصور أن أحدا سوف يحاكمنى هكذا ..

فلم يكن دارون ذلك الرجل القوى القادر على المناقشة والمناورة. وانما كان رجلا هزيلا مريضا .. فعندما سافر فى رحلته الشهيرة لمدة خمس سنوات الى أمريكا واستراليا كان عمره ٢٢ عاما . وكان أضعف المســـافرين . وكان يعمل فى هذه الباخرة العلمية باحثا فى الحيوانات والنباتات . ولميكن أحد يتصور أن تشارلز دارون هذا من الممكن أن يكون شيئا هاما فىالتاريخ . ولم يخطر على بال أحد أن دارون هو كولمبوس الجديد .. فاذا كان كولمبوس قد اكتشف قارتى أمريكا ، فان دارون قد اكتشف قارات من المعلومات العجيبة فى تاريخ النباتات والحيوان والانســـان . بل أن كل العلماء راحوا يدرســـون من بعده تاريخ الحجارة والتـــراب .. لان كل شيء له تاريخ وكل شيء على الأرض قد تغير وتطور .. فالتطور هو قانون الاشياء كلها ، كما أنه قانون الحيوانات كلها كما قال دارون .

وفى هذه الرحلة التى غاب فيها دارون عن بلاده قد درس عينات

www.alkottob.com

كثيرة جدا من النباتات والحيوانات .. واهتدى الى مجموعة من الافكار .. ولكنه لم يجرؤ على أن يعلنها . فهو اولا ما يزال صغيرا، ثم ان هذه الافكار مختلفة تماما عن الافكار السائدة او «المتسيدة» للهيئات العلمية كلها . ولذلك عندما ارسل لبعض اصدقائه من اكتشافاته جاءت عباراته خائفة مرتجفة ، كأنه يعترف بجريمة ارتكبها ، ولم يكن ذلك قصده . وانما وجد نفسه أمام شيء جديد مختلف . وكان لابد أن يقول .. وقال .

وفى سنة ١٨٥٩ أصدر دارون كتابه عن « أصل الانواع » ..

وكان هذا الكتاب نقطة تحول فى التاريخ الانسانى والحيوانى .

ولم يكن دارون أول من تحدث عن التطور تماما كما أن خريستوف كولمبس ليس أول من اكتشف أمريكا .وانما تحدث عن تطور الكائنات كلها اناس كثيرون . بل أن عددا من الفلاسفة والعلماء تحدثوا من التطور قبل دارون . وقبل أن يعرفوا انه اصدر كتابا يشرح فيه خطوات تطور الحيوانات بعضها الى بعض حتى اقتربت من الانسان.

وربما كان الفيلسوف الالمانى هيجل هو اول من رسم خطوط التطور لكل شيء فى الكون واول من قال ان الاشياء تتطور بعضها الى بعض . وان الله قد وضع خريطة وسلالم تصعد عليها الكائنات وفقا لهذه الخريطة . وان التطور من حالة الى حالة هى سنة الكون كله ..

وربما كان الفيلسوف الالمانى شوبنهور هو اول من قدم للانسانية

www.alkottob.com

نظرية التطور التى تحدث عنهـا دارون . وكان شوبنهور أمتع واوضح من دارون . ولم يشك شوبنهور لحظة واحدة فى ان الانسان اصله قرد . قال أن أبناء آسيا أصلهم اورنج تان .. وأبناء افريقيا أصلهم من الشمبانزى .. ومات شوبنهاور بعد صدور كتاب دارون بعام واحد دون ان يقرأ منه أو عنه سطرا واحدا . !

وكانت هنـاك نظريات كثيرة تفسر هـذه التغيرات فى تـكوين الحيوانات نفسـها .. لمـاذا رقبة الزرافة طويلة مثلا ؟ يقول عالم فرنسى اسمه لامارك : ان الزرافة تنحدر من سلالة كانت تعيش فى غابات . وكانت الغابات اشجارا طويلة . فاضطرت الزرافة الى أن تمد عنقها الوف السنين لكى تأكل الأوراق من قمم الاشجار .. وطال عنق الزرافة لهذا السـبب .. ومعنى ذلك أن الحيوانات « تتكيف » مع البيئة . أو يجب أن تتكيف مع البيئة والا ماتت من الجوع . فالبيئـة هى التى تؤدى الى تغير تكوين الحيوانات . أو حرص الحيوانات على ان تعيش هو الذى يرغمها على ان تتغير وأن تتغاير والا ماتت !

ونحن الآن لسنا بعيدين عن دارون وفلسفته . فهو يرى أن الحياة صعبة على الجميع . وأن الحيوان يجب أن يقاوم العقبات . ومن هذه المقاومة تتولد صلابته . ومن الصلابة يكتسب القوة . ومن القوة يكتسب التغلب على البيئة .. فاذا تغلب عليها عاش .. واذا لم يفلح فى ذلك مات . وكل الحيوانات التى ماتت هى حيوانات قهرتها البيئة وغلبتها الظروف . واول معالم الحياة هو الكفاح . والكفاح من

www.alkottob.com

صفات الاقوى.والاقوى هو الذى يبقى . فالبقاء للاقوى . والاقوى هو الاصلح للحياة .. فالبقاء للاصلح . والحيوانات التى تعيش هى اصلح الحيوانات لان تستمر . فاذا استمرت دخلت فى صراعات جديدة . وهذه الصراعات الجديدة تحتاج الى اسلحة جديدة والذى يجدد سلاحه هو الذى يبقى . والذى يبلى سلاحه هوالذى يفنى. واذا كان الحيوان ينتقل من مكان فى الصيف الى مكان آخر فى الشتاء ، او العكس فهو يختار الجو المناسب لحياته .. فالانسان يختار ظروفه الموائمة له .. ولكن الطبيعة كلها تختار الحيوان الانسب . والانسان الاقوى . فالاختيار الطبيعى هو اختيار الاحسن . والاحسن هو الاقوى والاقدر على ان يتكيف ويتوائم وان يتلاءم ويتطابق مع ظروف حياته المادية والاجتماعية .

انتهى تفكير دارون بعد أن حشد له الوف الامثلة من ملاحظاته الدقيقة جدا التى استغرقت اكثر من عشرين عاما !

وقد ارسل دارون خطابا لصديق له يقول : فى يوم وانا انظر الى القمر يتوارى وراء السحب جاءتنى هذه الفكرة وكأنها صاعقة لمعت فى راسى وهزتنى . واندهشت كيف أننى لم اعرفها من قبل . لقد ادركت بوضوح ان الحيوانات لا يمكن أن تكون من اصل واحد ثابت . لا يمكن أن تكون قد قطعت ملايين السنين من الغابات والجبال تحت المطر فوق الجليد ، وفى الكهوف على السفوح فى حرب مستمرة ، دون أن يتغير فيها مخالبها او انيابها او اظافرها او قراءها .. مستحيل . هذا ما اهتديت اليه !

ولم يتصور دارون لحظة واحدة انه بهذه العبارات المتواضعة

www.alkottob.com

قد زلزل العلم والدين .. فالعلم لم يكن يرى شيئا من ذلك . وانما يرى العلماء ان القرد اصله قرد .. أما الدين فيرى ان القرد اصله قرد ، وان الانسان اصـــله آدم وحواء .. ولا علاقة بين القرود والادميين !

وفى يوم كان دارون يتناول طعـــام افطاره عنـــدما دخل الخادم بخطاب .. فتح الخطاب . انتفض واقفا واجما . ثم ألقى بنفسه على المقعد حزينا .. ولكن لم يســـتمر كذلك كثيرا . فقد ادرك ان حياته كلها فى خطر . وان سنوات بحثه وملاحظته كلها توشك ان تاكلها نيران المدفأة امامه .. فالخطاب يقول له : أن رجلا اســـمه والاس يعيش هنا فى جزيرة الملايو . الرجل عالم جليل فقير . مريض .. لقد حبسته الملاريا منان يواصل رحلته الى اوروبا . هذا الرجل يتاجر فى الفراشـــات النادرة . ويبيع الحيوانات الجميلة لعدد كبير من الهواة والباحثين فى اوروبا كلها .. فهو قد ارسل اكثر من عشرين الف نوع من الفراش والطيور الى الهيئات العلمية . وهو يعيش من الصيد والتجارة . ولكن من المؤكد ان لديه كل مزايا العالم الكبير .. وقد هداه البحث الى شيء جديد .. والرجل يقول ان اساس كل شيء فى الحياة الانسانية والحيوانية هو التطور . وان الحيوانات تكافح من اجل ان تبقى . والحيوانات التى تبقى هى الاقوى ..

وكلام آخر كثير هو بالحرف الواحد ما قاله دارون !

ومن الغريب أن الرجلين قد خرجا بهذه الافـــكار بعد ان قرأ كل منهما ما كتبه القس الانجليزى مالثوس عن تزايد الســـكان الذى سوف يؤدى الى جوع الانسان وفنائه . وكل واحد من الرجلين قد ذهب فى طريق ليصل الى نفس النتيجة !

www.alkottob.com

وليس هـــذا هو الحادث الأول من نوعه فى التـــاريخ . فكثيرا ما اهتدى العلماء الى نظريات واحدة فى وقت واحد ، دون أن تكون بينهما صلة ما .. فقبلهما بمائتى سنه اهتدى العـــالم الانجليزى نيوتن والفيلسوف الالمانى ليبنتس الى منهج فى الرياضيات واحد .. والى نظريات فى «التفاضل والتكامل» متطابقة تماما . وسارع كل منهما باعلان نظريته الجديدة .. فكانت النظرية هى هى عند كل من الاثنين .

واهتدى دارون الى حل سعيد حتى لا يتهم الرجل الآخر بانه سرق افكاره . وحتى لا يتهمه والاس بانه هو الذى سرقه . فقرر دارون ان ينشر كتابه الذى الفه فى ٢٣١ صفحة على نفس البحث الذى كتبه والاس هذا . ونشر الكتابان معا . ولكن قـــدر لدارون ان يكون هو صاحب الاسم وصاحب النظرية وصاحب الثورة ايضا .. ولم تساعد الظروف والاس هذا ، فقد كان فقيرا وكان بعيدا عن لندن . ولم يكن لديه هذا الصبر على المتابعة .. ولذلك اصـــبح دارون هو صاحب نظرية التطور او التطور نفسه اما ولاس فهو « الصـــدفة » .. او هو من عجائب الصـــدف . ودخـــل تاريخ التطور الانســـانى على انه نكتة : اذ كيف ان رجـــلا مريضـــا فى احدى جزر الملايو يهلوس طـــول الليل ويمســـك القلم ويدفعه امامه على الورق طالما نازلا كانه ثعبان يهتدى الى افكار رجل آخر فى لندن مريض ايضا يظل يهرش طول الليل حتى يسيل دمه ، تماما كما كان يفعل نابليون .. ربما وجد علماء الدراسات الروحية فرصة عظيمة ليقولوا : ان الرجل المريض كان فى حالة شفائية جعلته يقرا افكار دارون وينقلها حرفا حرفا .. بل سطرا سطرا .. مع ان المسافة بينهما عشرات الالوف من الاميال .. ثم ان الرجلين لايعرف احدهما الآخر !

www.alkottob.com

شيء عريب هذا الذى حدث .. فعندما كان الانسان فى أوائل القرن التاسع عشر يفخر بأنه اخترع الآلة . وان هذه الآلة قد اغنته عن الحصان والحمار ، جاء علم الحياة وعلم السلالات يؤكد ان الحيوان هو أصل الانسان . فاذا كانت العلوم الميكانيكية تريد ان تفخر بانها نقلت الانسان من عصر الاعتماد على سيقان الخيول واعناق الأبقار وظهور البغال ، فان علوم الحياة قد اعادت الحيوانات الى مجدها .. بل انها هبطت بالانسان الى ما دون الحيوان .. بل انه ليس الا حلقة فى سلسلة تطورات الحيوان .. وانه ليس بعيدا أن تنظر الأجيال القادمة الى الانسان على انه حمار او حصان .. وذلك عندما يتطور الانسان الى كائن آخر افضل .. المهم فى نظرية دارون انها حركت كل شيء ودفعته الى الامام .. او جعلت من الواجب أن يندفع الى الأمام .. لان الذى لا يتحول يتجمد . والذى لا يتطور يتدهور والذى لا يتقدم يموت .. وان هذه ليست ميزة خاصة بالانسان ، وانما الحيوان قد سبقه الى ذلك . فلا فضل كبيرا للانسان على الحيوان .. اما الآلة فهى من اختراع الانسان .. والآلة ابسط وأتفه من اى حيوان .. فالحيوان تحفة فى الخلق . وهذا ما ذهب اليه رجال الدين ، الذين حاولوا ان يجدوا لهم مكانا جديدا تحت شمس هذه النظرية . فاذا كان دارون قد هدم مفهوم الكتب المقدسة لأصل الانسان ، فان رجال الدين بسرعة قد استفادوا من النظرية الجديدة وتكيفوا معها حتى لا يتصلب الدين ورجال الدين ويفوتهم قطار التطور .. ولذلك كان رجال الدين أول من قفز الى القطار الجديد وركبوة حتى لاتضيع من تحتهم ومن أيديهم اهم أسرار الكون .

ولما توفى دارون يوم ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢ اعلن رجال الدين ان

www.alkottob.com

هذا الشيطان يجب الا يدفن فى مقابر العظماء . ومن الخير له وللشعب الانجليزى ان ينفذ ما اوصى به وهو ان يدفن فى حديقة قصره الريفى.. ولكن سرعان ما عدل رجال الدين عن هذا الموقف الجامد ورحبوا بان يدفن الى جوار عظيم آخر هو نيوتن .. فكلاهما عظيم فى الحياة وفى الممات وكلاهما خطوتان فى تطور علوم الطبيعة والحياة ! .

www.alkottob.com

خلقنا الله بعناية لتقضي علينا بإتقان!

* المواصلات الحديثة قربت المسافات بين المدن والدول والقارات . واصبح من السهل ان يتحرك الانسان وان ينقل امراضه من مكان الى مكان بنفس السرعة .. فالانسان يركب السيارة والباخرة وينقل معه ميكروبات او حشرات تحمل الميكروبات والموت الى اى مكان . مثلا فى القرن السابع عشر انتقل مرض اسمه (الجمرة المخية) وهو مرض يصيب كل الحيوانات ، وينتقل الى الانسان . اسمه باليونانية انثراكس . والتسمية دقيقة . ولذلك ترجمه الالمان بانه (الفحم) والفرنسيون وصفوه بانه الكاربون .

لان المرض عبارة عن احتراق داخلى للحيوان . ولم يعرف احد كيف ينتقل من حيوان الى حيوان الى انسان او العكس . قالوا : انه عفريت يركب الانسان والحيوان ويشعل فيه النار من داخله. قالوا : لعنة من السماء حلت بالانسان فنقلها الى الحيوان . وقالوا : غضب الهى على الاثنين ..

www.alkottob.com

ولكن الاطباء عندما نظروا تحت الميكروسكوب وجدوا ميكروبات على شكل عصى .. ووجدوها فى الطحال . ولم يذهب احدا الى ابعد من ذلك .. حتى ظهر عـــالم المانى مجهول كان يعمـــل فى غرفة ضيقة جدا فى برلين .. هذا الرجل اسمه روبرت كوخ عبقرية فذة فى الفهم والصبر وبعد النظر . وفى سنة ١٨٧٦ عرف كوخ اشـــياء كثيرة واكدها بهدوء . وظل كوخ هذا يطارد الميكروبات فى أسماء المصريين ومعدة الهنود وبراغيث اليابانيين وبعوض الامريكيين .. وعرف الدوسنتريا ، وعـــرف الحمى الصـــفراء وعرف التيفوس والملاريا .. وكان كوخ هذا رجلا حكيما وكان يقول : ان هذه الكائنات الصغيرة تحدثنى بعبارات دقيقة جدا .. وانا احاول ان اسمعها بوضوح . وانا اؤمن بانها لا تكذب . بل اننى اعتمد على ذلك كل الاعتماد . ولهذا سوف أصل الى شىء ..

ومن الاكتشافات التى أذهلت كوخ هذا انه عندما وصـــل الى اواسط افريقيا اكتشف ان ذبابة « تسى تسى » التى تصيب بالنـــوم حتى الموت كل من تلسعه ، بها دم تمساح . وبعد ذلك اكتشف أن التمساح هو اكبر خزان لميكروبات النوم ، وان لديه مناعة تامة ضد الاصابة بهذا المرض . واعجب من ذلك انه عثر على تماسيح لاتنام الا نادرا !

***

واهتدى كوخ ايضا الى ان فئران السفن هى التى تنقل الاوبئة من بلد الى بلد ..

فالفئران السوداء جاءت من الشرق فى ســـفن الصليبيين ..

www.alkottob.com

فكان أوروبا قد لقيت ما تستحقه من عقاب .. جاءت تنشر الموت والتعصب ، وعادت سفنها مليئة بالفئران تنشر فيها الطـــاعون والاوبئة التى اكلت عشرات الملايين من الناس ـــ الكوليرا مثلا !
ثم جاء الفأر البنى اللون ..

ففى سنة ١٧٣٢ وقع زلزال عنيف .. وفزعت ملايين الفئران واتجهت الى احد ضفاف نهر الفولجا عند مدينة استراخان .. ولأسباب لا تعرفها الآن بوضوح قررت الهجرة .. وعبرت النهر وغرق منها مليون فأر على الأقل .. ولكن بقية الفئران وصلت الى الشاطىء . وواصلت زحفها الى الجنوب الى أوكرانيا .. ثم الى الغرب الى بولندا . ثم الى بوهميا .. ثم الى الشمال قليلا الى بروسيا .. حتى وصلتها فى سنة ١٧٤٠ .

وفى سنة ١٧٥٣ وقفت عند أبواب باريس ودخلت .. وتكاثرت بسرعة ..

ووصـــل الفأر البنى الى أمريكا فى سنة ١٨٥١ .. واحتل بجدارة المكان المتواضع الذى شغله الفأر الأسود وراح ينقـــل بهمة ونشـــاط امراض التيفوس وكثيرا جـــدا من أمراض الفم والقدمين ..

* * *

الى جانب شخصية العالم الالمانى روبرت كوخ ظهرت شخصية استولت على القارة الأوروبيـــة كلها : باستور .. ذلك العالم

www.alkottob.com

الفرنسى النحيف المشلول احدى الساقين .. هذا الرجل لم يكن الناس ينظرون اليه على انه طبيب أو باحث وانما على انه رجل دين يعالج الناس بالمعجزة . فهو انسان طيب . أو رجل مبارك . وهو نفسه كان يعتمد على احساس داخلى بأنه سوف ينجح .. وانه سوف يشفى المرضى باذن الله . لماذا ؟ لا يعرف ؟ كيف ؟ لا يعرف . ولكن هذا يحدث له ومعه وبسببه كثيرا جدا .

هذا الرجل هو من ذلك الطراز من الناس الذى لا يخاف الناس .. أى لايخاف أن تكون له افكار خاصة مختلفة عن افكار الناس .. وان لـه احلاما اخرى يكذبهـا الواقع . ولكنه وحده الذى يصدقها .. انها حياة قاسية جدا : أن يكون الانسان وحده مع افكاره . أو أن يكون الانسان مثل خرستوف كولمبوس وكل الناس يسخرون منه ولكنه مؤمن بانه على حق .. أو مثـل نوح عليه السلام يبنى سفينة على الأرض .والناس يمرون به ضاحكين ولكن نوح كان يؤمن بان السماء سوف تمطر وان الطوفان سيجتاح كل الناس وسوف ينجو هو باهله من الغرق .. وعلى الرغم من أن نوحا هذا قد انقذ الناس والحيوانات ، فانه لم يفلح فى ان يقنع ابنه بأن يركب معه .. فنجا الناس وغرق ابنه .. وكذلك العالم الكبير باستور الذى عالج الكثيرين من الناس وشفاهم ، لم يفلح فى علاج اقرب الاقربين اليه .. وماتوا .. ولكن الملايين شفاهم او انقذهم قبل أن يصيبهم مرض .

واستطاع باستور ومعهـده أن يحتفظا بهذه السمعة العالمية المحترمة .. من أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم .. بل انه حدث اخيرا جـدا أن اصيب بالتسمم بعض زبائن مطعم فى مدينة

www.alkottob.com

لإيلانا بالأرجنتين . مات منهم عشرون . فأرسلوا عينات من الطعام ومن المصابين الى معهد باستور فى باريس . وبسرعة جاء عدد من العلماء . وانقذ مئات آخرين .. وحدث أيضا أن انتشرت الحمى البابونية فى احدى مزارع قصب السكر فى جزيرة مدغشقر (جمهورية مالاجشى) . وبسرعة طار عدد من أطباء المعهد وأوقفوا سريان الطاعون بين المواطنين . أهم من ذلك أن العالم كله يتوقع من هذا المعهد أن يأتى بالمعجزات ..

ويمكن أن يقال أن ملايين الناس فى العالم اليوم أحياء بسبب هذا المعهد الفرنسى الذى انشىء سنة ١٨٨٨ . ويوم انشائه وقف باستور نفسه يتساند على واحد من أولاده ويبكى من شدة التأثر .. وقد حرص باستور على أن يكون هذا المعهد أهليا مستقلا .. وقد شارك فى بناء هذا المعهد بأمواله : أطفال من الهند وتلامذة من الصين ومرضى فى أمريكا .. وملوك وأباطرة .. وظل هذا المعهد هيئة علمية مستقلة تماما ..

* * *

أما الاحداث التى يذكرها العالم لهذا الرجل العظيم باستور فلا عدد لها .. ولكن الرجل كان يؤمن بأن هناك كائنات صغيرة جدا .. هذه الكائنات ــ البكتريا ــ هى مصدر الشر والخير للانسان . بعض هذه الكائنات تضره وتتلف اليه المرض . وبعضها تنفعه وتقوم بعمليات التخمر فى الطعام والمشروبات .. وهو يؤمن بأن بعض هذه الكائنات اذا ارتفعت درجة حرارتها ماتت . وبعضها اذا جعلناه ضعيفا ، وحقنا به انسانا مريضا فانها تلهب حماس القوى الداخلية فى الجسم الانسانى ليقاوم المرض الدخيل ..

www.alkottob.com

ونحن عندما نقول ان اللبن « مبستر » أى اننا قد برغناه ثم سخناه ، كما كان يفعل باستور . وبذلك ماتت الميكروبات وانقذنا حياة مئات الملايين من الأطفال فى العالم من الاصابة بالسل !

ومن المواقف الحاسمة فى تاريخ باستور وفى تاريخ العالم كله ايضا :

انتشار مرض الكلب ـــ بفتح الكاف وكسر اللام . فالتاريخ لا يذكر لنا الا حالة واحدة فقط اصيب فيها انسان بهذا المرض ثم قدر له ان يعيش لان كل المصابين ماتوا ، وكان لابد ان يموتوا ..

حتى كان ذلك اليوم الحاسم فى التاريخ .. انه يوم « ٦ يوليو الرائع » سنة ١٨٨٥ . جاء طفل فى السادسة من عمره .. الطفل اسمه يوسف ميستر . مهم جدا هذا الطفل . وهذا الاسم . الطفل قد عضه كلب مريض اربع عشرة مرة فى اماكن مختلفة من جسمه .. وكانت محنة . فباستور لا يعرف ما الذى يعمله . ان هو عالج الطفل ومات شمت فيه اعداؤه وقالوا : قاتل .. الم نقل لكم من وقت طويل ؟ ..

واذا لم يعالجه كان فشله أوسع انتشارا من نجاحه .

ولكنها العبقرية هى التى الهمته ان يحقنه اربع عشرة مرة .. لماذا هذا الرقم ؟ لا يدرى . ولكنه الرقم الذى يتم عنده الشفاء .. وشفى الطفل . وانتشر هذا الخبر فى اوروبا كلها على انه معجزة المعجزات .. وشاء باستور ان يجعل هذا الطفل املانا حيا لنجاحه

www.alkottob.com

.. فجعله بوابا للمعهد .. بل انه بعد وفاة هذا البواب ، اقاموا له تمثالا ـــ وما يزال ـــ فى مدخل المعهد كاكبر نجاح حققه باستور لنفسه وللعالم كله ..

وبعد ذلك جاءه من روسيا ثلاثون فلاحا عضتهم ذئاب مسعورة .. جاءوا الى باريس ولا يعرفون من اللغـــة الفرنسية الا كلمة واحدة : باستور .. وعالجهم وانقذ من الموت عشرين واحدا منهم .. اما سبب وفاة الآخرين فلأن الذئاب قـــد عضتهم قبل ثلاثة اسابيع . وقد جاءوا اليه متأخرين .

والوف آخرون من كل أوروبا جاءوا الى باستور يطلبون علاجا لأمراض اخرى لا يعرفها.ولكنه تمنى ذلك وتمنى لهذا المعهد الذى انشىء حديثا ان يكون املا لكل المرضى . والا يرد مريضـــا .. ولا يخيب املا فى الشفاء .. وهذا المعهد يعيش على الامصال التى يبتكرها ويصنعها ويبيعها للعالم كله لحقن المرضى ..وسلامتهم بعد ذلك ..

يقال ان مريضا سأل باستور : كيف عرفت طريقك الى هذه الكائنات الصغيرة ؟

فاجاب : انا لم اعرف طريقها ، هى التى عرفت طريقى ... واعترضتنى وعطلتنى .

ـــ كيف ؟

www.alkottob.com

ـــ انها اصابتنى بالشلل فى احدى ساقى .. ولا اعرف ان كنت سوف اعيش لاجد علاجا للذين اصيبوا .. أو لاجد وقاية للملايين حتى لا يصابوا ..

ـــ ولكنك انقذت الملايين ..

ـــ هذا رقم كبير ..

ـــ فعلا انقذت الملايين ..

ولكن هناك ملايين آخرين يجب انقاذهم .. ملايين لم يولدوا بعد .. هذا هو الذى يشغلنى !

وقبل باستور سئل العالم الالمانى العظيم روبرت كوخ عندما جاء الى مصر فى اواخر القرن التاسع عشر :

ـــ يا دكتور كوخ انت مكتشف عظيم فضحك ليقول : مكتشف عظيم لكائنات حقيرة .

ـــ هل ترى انها حقيرة فعلا !

ـــ لاشىء حقيرا فى هذا الكون فكل شىء خلقه الله بعناية ليؤدى دوره بمنتهى الاتقان .. آه لو رايت هذه الميكروبات كيف تعمل على اداء مهمتها .. كيف تدافع عن نفسها .. كيف تتسلل الى الجسم الانسانى وتتحصن .. ان نشاطها وتماسكها ونظامها يحسدها عليه كل المهندسين والعسكريين .. ولكنها كائنات ضارة .. وهى

www.alkottob.com

فى نفس الوقت كائنات لها نظام عجيب يبعث على الدهشة والايمان بعظمة الله .. صحيح انها ضارة جدا ولكنها اجهزة دقيقة جدا .. وهذا هو الذى يبهرنى .. ولذلك احاول دائما ان اهرب من الوقوع فى اسرها .. واتوقف بسرعة من الاعجاب بها الى العمل على الوقاية منها ..

.. وكانت بداية رائعة للحرب ضد الكائنات الصغيرة جدا من اجل القضاء على بقية الكائنات !

www.alkottob.com

هذه الكائنات التافهة التي تحطمت الجيوش

جمع الملك لويس الخامس عشر رجاله والتفت اليهم يقول : ماذا يجب ان نكتب فى هذه الرسالة ليعرف عدونا روح الشعب الفرنسى . واختلف الرجال حول الملك .. كل واحد يقول عبارة تليق بعظمة فرنسا ولكن الملك راى شيئا آخر .. واشار بيده . وجاء رجل وقال له : هذه العبارة انقشها على مدفعى .

وضحك الرجال حول الملك . وكانما اراد الملك ان يحرجهم جميعا . فتساءل : ماذا تقولون ؟ ولم يقل احد . وقال الملك : انقش هذه العبارة على مدفعى : اقفلت باب المناقشة وفتحت النار !

ثم جاءت الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ١٩ اغسطس سنة ١٧٩٠ ومسحت هذه العبارة !

ولكن مثل هذا النقاش يبقى دائرا دائما فى كل مكان : هل هى الحرب ؟ هل هو السلام ؟ ايهما الوسيلة لاقناع الآخرين ..

www.alkottob.com

او ارغامهم على الاقتناع والنتيجة : موت عشرات الالوف ، مئات الملايين من الناس فى كل العصور !

ولكن لماذا الحرب ؟

قبل ان تجيب على هذا السؤال بالنيابة عن شعبك ، اسأل : لماذا الحرب بينك وبين الناس . فاذا وصلت الى نتيجة فاضربها فى عدد سكان شعبك والشعوب الاخرى . والنتيجة مقنعة لانها هى الجواب الصحيح !

* * *

ولكن هل هذا هو نوع الحرب الوحيد الذى عرفه الانسان ! الجواب طبعا : لا ... فهناك حروب من نوع آخر .. حروب بلا جيوش ولا اسلحة ولا نار ولا شرار ولا خطب ولا زعماء ، ولا نياشين ولا انواط .. حروب أقوى من كل الحروب ، بل هى الحروب التى اوقفت الحروب وأعادت الجيوش من منتصف الطريق .. ولم يجد الانسان وسيلة واحدة لايقافها .. هذه الحروب هى حروب الانسان ضد قوى طاغية باغية جبارة .. ضد الميكروبات والحشرات والحيوانات التى تنقل الميكروبات الى طعام الانسان وشرابه وملابسه وتقهره فى معركة غير متكافئة الميكروبات هى الاقوى دائما ..

ومن اقدم العصور يحدثنا مؤرخ الاغريق هيرودوت ان الملك الفارسى اكزركيس دخل منطقة تساليا بجيش من ٨٠٠ الف رجل .. ونفدت الذخيرة ثم جاء الجوع فأسقط رجاله ضحية لمرض لا يعرفونه .. فمات من رجاله نصف مليون جندى .. وعاد الملك كسير الرأس الى بلاده !

www.alkottob.com

اما قوات اثينا ، فقد هاجمها المرض ، واطاح بجيشها وارقده على الأرض . وداست الجيوش بعضها البعض .. ومات الف فارس واربعون الفا من الجنود .

وفى عام ٤١٤ قبل الميلاد حاصرت قوات قرطاجنة مدينة سرقوسة واكتسحتها الاوبئة وانهسرت المعارك قبل ان تبدأ .

ولا أحد يعرف مصير روما والحروف البونية لو وجد القائد هانيبال قواته فى صقلية كما تركها قوية ولم يستبد بها المرض .

ثم الحروب الاهلية فى روما سنة ٨٨ ق.م وانتصار ماريوس المؤكد قد اضاعه انتشار مرض لا يعرفون اسمه فى ذلك الوقت وقضى على عشرين الفا من رجاله .

وفى عام ٤٢٥ ميلادية تقدمت جيوش الهون الى القسطنطينية .. ولكن وباء استشرى بينها فعادت الى قواعدها فى وسط أوربا .

اما الحروب الصليبية فهى نموذج صارخ لما يفعله مرض الاسقربوط الذى يجىء عن نقص فى التغذية وحاجة الجسم الى الفيتامينات ، وضعف الجسم وعجزه من مقاومة اى مرض دخيل ففى ١٠٩٨ زحفت الجيوش الصليبية فى اتجاه الاراضى المقدسة ، وزحف الجوع وسوء التغذية فى الاتجاه الآخر . وكانت هذه الجيوش تضم سبعة آلاف من الفرسان ، مات منهم خمسة آلاف .

وبعد أيام من الزحف على القدس سنة ١٠٩٩ لم يبق من

www.alkottob.com

الجيش الذى يتكون من نصف مليون سوى ستين الفا .. وفى سنة ١١٠١ اصبح عدد القوات الصليبية عشرين الفا .. عادوا حفاة عراة يركبون الابقار والحمير الى اوربا !

وفى الحملة الصليبية الثانيـــة التى قادها ملك فرنسا لويس السابع كان من نصيبها أن تلقى نفس النهاية . ولم يبق من جيش يضم نصف مليون سوى ثلاثين الفا !

وحدث شىء آخر فى سنة ١١٩٠ ان جاء مرشد تركى وســـارت القوات الصـــليبية وراءه ، واذا بالرجل يستدرجهم جميعا الى الصحراء حيث الجوع والعطش ومرض الاسقربوط ، مات مائتا الف ، أما الباقون فعادوا نصف أحيـــاء .. ومات الكثير منهم فى الطريق حتى عبروا الدردنيل بقايا بشر !

وحدث أيضا ان الامبراطور الالمانى فريدريش الثانى قد غادر باسطوله ميناء برنديزى الايطالى ، فى طريقه الى بيت المقدس .. ولكن فى احدى ليالى ١٢٢٧ أحس الامبراطور بآلام شديدة واسهال دموى . لقـــد اصـــيب الامبراطور بالدوسنتاريا وجـــاء طبيب الامبراطور .. ما الذى يصنعه ؟ ولكن بعد ساعات اصيب أحـــد الضباط .. ومئات الضباط والوف الجنود وعاد الملك وجيوشـــه من عرض البحر !

والاسقربوط ليس مرضا معديا ، ولكن من أمراض الحروب ! وخصوصا القوات المحاصرة والقوات الزاحفة وقتا طويلا .. وقد اهلك ملايين الجنود فى التاريخ .. وهذا المرض ليس خطيرا فى ذاته فقط ، ولكنه صديق لجميع الامراض الاخرى . فهو يساعدها

www.alkottob.com

على التسلل الى الاجسام ويضعف مقاومتها .. ويجعل اقامتها ايسر .. حتى الموت !

وفى الجمعة الأولى من سنة ١٢٥٠ اعلن القديس لويس ملك فرنسا ، ان قواته تصاب باشياء غريبة . وفسر ذلك بان رائحة الجثث هى السبب . وان الديدان التى تاكل جثث القتلى فى الانهار ، هى التى تؤدى الى انتشار الأمراض بينها . أما المرض فهو الاسقربوط طبعا . وكان يجفف جلد البشرة والساق .. ويجفف الحلق والشفتين واللثة .. وكان الحلاقون يزيلون هذا الجلد الميت بالسكين حتى يتمكن الجنود من تناول الطعام والشراب . وكان الجنود يصرخون كالاطفال . ولكن لا تفسير علميا لذلك وانسحبت جيوش القديس لويس . ولم يكد يصل الى تونس حتى مات يوم ٣ اغسطس سنة ١٢٧٠ ومات ابنه يوم ٢٧ اغسطس .. وكانت آخر كلمات القديس لويس : هؤلاء الكفرة الوثنيون قد استخدموا ضدنا اسلحة لا نعرفها — أما الكفرة الوثنيون — الذين يقصدهم فهم المسلمون !

أما القوات الرومانية فقد احرقت معسكراتها كلها يوم ٦ اغسطس سنة ١١٦٧ لماذا .. يقول طبيب الحملة نفسه . اصيب الجنود بارتفاع فى درجة الحرارة ورعشة وهذيان وآلام شديدة فى الظهر والساقين والبطن . وهذا التشخيص دقيق .. أما المرض فهو التيفوس !

وهو من اخطر الامراض واشدها فتكا بالجيوش فى العصور القديمة !

* * *

www.alkottob.com

ويمكن أن نسجل الصراع بين فرنسا واسبانيا فى كل العصور القديمة بأنه صراع بين المرض والصحة . وانه فى كل مرة تزحف القوات يعود بهـا المرض . وكان المرض أو الميكروب هو الذى يحدد اتجاه الجيوش ويلوى مسارها وانكسارها والملك الفرنسى فيليب الثالث عاد من حملته على أسبانيا سنة ١٢٨٥ . فقد هزم الوباء جيش الملك وقضى على الملك نفسه !

وربما انفردت الحروب بين أسبانيا وفرنسـا بانتشار مرض واحد هـو التيفوس ، وهو يجىء من القمل الموجـود فى ملابس المتحاربين !

وفى اول اكتوبر سنة ١٤٣٩ وصل الامبراطور الالمانى البرشت الى مشارف بغداد . وفى يوم ١٣ من نفس الشـهر انسـحب الامبراطور والجنود . فقـد اتعبتهم الدوسنتاريا عن مواصـلة السير أو استئناف القتال !

اما الملك شارل الثامن ملك فرنسا وهو يحاصر نابولى الايطالية فقد اصـدر قراره بالعودة . ولم يكن فى حاجة الى أن يشرح السبب ، فقد أصيب هو والوف من جنوده بمرض الزهرى !

وعندما حاصر الملك شـارل الخامس ملك فرنسا مدينة متس الالمانية تراخى الحصار فقد أصيب هو وثلاثون الفا من جنوده بالدوسنتاريا .

اما الامبراطور الالمانى ماكسميليان الثانى فقد فقد جيشا من مائة الف جندى كان موجها ضد السلطان سليمان . وكان فى نية الامبراطور أن يزحف على المجر ولكن حدث شىء سنة ١٥٦٦ جعل الامبراطور يعدل عن قراره .. فقد دبت المعارك بين القوات ..

www.alkottob.com

وسحب كل واحد سلاحه على الآخر : سخونة وهذيان . فالجنود قد اصابهم التيفوس وعدل الامبراطور عن الحرب !

اما حروب الثلاثين عاما فى اوربا ، فقد تميزت بسيادة التيفوس على كل المتحاربين . بل ان القوات الالمانية قد زحفت من اتجاهين على مدينة نورمبرج فى سنة ١٦٣٢ ، ودون اتفاق بين الطرفين انسحبت الجيوش من هنا وهنـــاك . والسبب : الاستريوط ، والتيفوس والدوسنتاريا .

والملك الانجليزى تشـــارلز الاول كان فى نيته ان يزحف على لندن . وعارضه البرلمان . وتوقف بعض الوقت ، ثم توقف نهائيا بعد ان اصابه التيفوس . فتوقف عن الحركة تماما .

وعندما انتصرت قوات الامبراطور فريدريش الاكبر على قوات الامبراطورة ماريا تريزا النمساوية زحف على ولاية بوهيميا .. ولكن على غير ما توقع النمساويون ، عـــاد الامبراطور منسحبا لما السبب فيرويه لنا الدكتور لوكوف طبيب الامبراطور : لم يكن الامبراطور معتدل المزاج فى هذا اليوم ، كان عصبيا جدا ، وكان رجلا كافرا . ولا يؤمن بوجود اله او معجزة او ان الدعاء الى الســـماء من الممكن ان يحقق شـــيئا ما .. وكان الناس حول الامبراطور يصلون له . وكان الامبراطور عاقلا . فقد امتنع عن الطعام .وكان يحتفظ بأنواع من العقاقير جاءت اليه من الشرق ولابد ان احدا قد نصحه بأن يتناولها كلما مرض . وتناول الذى لا اعرفه . وشفى الامبراطور من الدوسنتاريا .. ولكن الالوف من جنوده قد خلعوا ملابسهم وتمرغوا فى الغابات بسبب الاسهال الدموى الشديد .. وقرر الامبراطور وهو حزين تماما ان نجمع اشياءنا ونعود . ولا داعى للحرب !

www.alkottob.com

وقد لعبت الدوسنتاريا دورا هائلا فى انقاذ الثورة الفرنسية ـــ هكذا يقول الطبيب الساخر الممتع هانس تسنسر فى كتابه «الفئران والقمل والتـــاريخ » . يقول : فى ســـنة ١٧٩٢ قرر الامبراطور فريدريش فلهلم الثانى اعداد جيش من خمسين الفا للزحف على قوات الثورة الفرنسية والقضاء عليها . وراجع الامبراطور الخطة مع قواده .. وسألهم أن كان النصر مؤكدا . قالوا : نحن متحدون وهم متفرقون . نحن أقوياء وهم فلاسفة ..

وقرر الامبراطور الزحف . وتقدمت القـــوات . ولكن فجأة تمزقت القوات كل جلـــدى فى مكان .. وكان الجنود يسابقون الضباط فى البحث عن مكان يتوارون فيه . لقد اذابتهم الدوسنتاريا .. وكان منظرا غريبا عجيبا .. كل هذه القوات قد تخلت على شواطىء الراين تعانى من آلام هذا المرض المخجل !

وفى سنة ١٨٠١ أرسل نابليون قائده الجنرال لكلارك ومعه ٢٥ الف جندى لاخماد ثورة نشبت فى هايتى . ونزلت القوات الفرنســـية الى شـــواطىء الجزيرة . وتراجعت أمامها القوات الزنجية . ثم تقدمت الحمى الصـــفراء تحصد الفرنسيين وقتلت منهم ٢٣ الفا .. ولم يبق حتى من هـــذا العدد سوى ثلاثة آلاف فرنسى عادوا الى فرنسا سنة ١٨٠٣ !

يقول كوركوف طبيب نابليون : لو كان نابليون قد توقف بعض الوقت فى بولندا . وأعاد تنظيم قواته . وراعى الاجراءات الصحية ما كان هذا مصيره أمام موسكو . ان المرض قد هزمه قبل الجليد وقبل القوات الروسية . المرض أولا . والجليد ثانيا والارهاق ثالثا والروس رابعا .

www.alkottob.com

يقول كوركوف أيضا : لقد انسحب نابليون من موسكو ومعه مائة الف جندى .. أما الباقى فموتى ومرضى ومنجمدون وقتلى .

أما المارشال الفرنسى ناى فقد أمره نابليون بأن يصمد .. وصمد المارشال حتى لم يبق معه سوى عشرين جنديا وضابطا .. وهؤلاء الجنود ماتوا بالدوسنتاريا والتيفوس .. بل ان هؤلاء الجنود قد اكلوا جلود الاحذية .. واكلوا لحوم البشر .. كان الجندى ينقض على الجندى الاخر ويبحث فى جسمه عن مكان لم يصب بشىء ويأكله .. ويرتمى الى جواره مسموما او مريضا . ثم ميتا بعد ذلك !

* * *

ان العلم الحديث قد كشف للانسان ان هناك كائنات اصغر منه واقوى منه .. ليس الحيوان الطيب هو الذى اجمل من الانسان واكثر فضيلة .. وهو الذى لحق بالعناية والاحترام .. وانما هناك كائنات اصغر واحقر وافقه مما يتصور .. هذه الكائنات الضئيلة هى التى قضت عليه وابادته وجعلته يشعر انه اصغر وافقه .. **وعلى ذلك يجب ان يتواضع الانسان قليلا او كثيرا .. فليس هو السيد المطاع الامر الناهى القادر على كل شىء .. او القادر على كل شىء الا شيئا واحدا : هذه الحشرات او هذه الميكروبات التى لا يدريها .. ويجب ان يتفرغ لها ، فهى لا تكف عن التكاثر والاتحاد دفاعا عن حياتها .. ويوم ينقرض الانسان سوف تكون هذه الكائنات وارثة للارض وما عليها ومن عليها !**

www.alkottob.com

دفاع عن الناس والكلاب
نظرية !

اديبة فرنسا كوليت هى التى قالت : لو لم اكن انسانا لتمنيت ان اكون حيوانا . ولما سئلت : اى الحيوانات تختارين ؟ قالت : ان اكون قطة تلعب مع كلب فى قفص قرود على جبل الاسود . ولما سئلت مرة اخرى : ولكن لماذا ؟ قالت كوليت : فقط ان اعيش بغريزتى بلا خوف .. بلا حدود بلا سدود بلا تدخل من احد من رجال القانون او الدين .. من هذه الاكاذيب التى يسميها الناس : حضارة الانسان ..

اننى لا ارى الانسان اسعد من الحيوان .. اننى لا ارى الطائرات اخف من الطيور .. اننى لا ارى الرجال اشجع من الأسود ولا اكرم منها .. اننى لا اصدق ان الانسان هو اجمل واذكى واقوى هذه المخلوقات على الارض .. اننى كلما عرفت الحيوان ازددت احتراما له ، واحتقارا للانسان .. اسعد لحظات عمرى هى التى اشعر اننى فيها مثل قطة او مثل كلبة .. وان كل

www.alkottob.com

الذين حولى ليسوا من البشر .. ولذلك أجد سعادتى الكبرى فى أن اغمض عينى حتى لا أرى آدميا واحدا .. واعيش بخيالى مع مالا عدد له من الحيوانات .. اننى عندما افتح عينى أجد الانسان ، وعندما اطبقهما أجد الحيوان — ولذلك سعادتى الكبرى أن اقفل عينى والباب والنافذة واسحب الغطاء على راسى وأموء كالهرة السعيدة بأنها تجردت من انسانيتها المزيفة ! » .

وكلام كثير آخر جميل تقوله كوليت التى ألفت كتبا عناوينها : السلام عند الحيوانات .. كيكى اللذيذة .. سبع محاورات مع الحيوانات ..

ولكن أحب الحيوانات الى كوليت : القطة .. لماذا ؟ لديها الكثير جدا الذى تقوله عن نعومة القطة ونظافتها .. ورشاقتها .. وتسللها فى الليل دون أن يشعر بها أحد .. كأنها فكرة أو كأنها شبح أو كأنها مرض .. أو كأنها شىء يطير دون أن تدركه جاذبية الارض ..

تقول كوليت ايضا : لا أعرف لماذا هم فى الشرق يعتقدون أن القطة لها سبعة أعمار .. وأنها من الممكن أن تموت أكثر من مرة .. أو من الممكن أن تعيش أكثر من مرة .. ان القطة — وهى شرقية الأصل — يجب أن تعيش مائة عمر .. فكل ما يحتاجه الانسان فى الدنيا ، هو أن يكون ناعم الحركة والملمسة والفكر .. لان تعاسة الانسان هى خشونته .. خشونة الكلمة والفعل !

* * *

وهذه القطط دخلت أوروبا مع الحروب الصليبية . وكانت حيوانا غريبا . ولكن بسرعة عرف الأوروبيون فضائلها : انها

www.alkottob.com

تهجم على الفئران تأكلها ويكفيها ذلك فخرا . وقد كانت عند الفراعنة حيوانا مقدسا . وكان العرب هم الذين نقلوها الى أوروبا والاسلام قد طلب من الناس الرحمة بالقطة بل ان الرسول عليه السلام يروى : أن امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها : لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من فضلات الأرض .

ومع اكتشاف الميكروب وطرق العدوى بدأ الناس يخافون من القطط والكلاب أو من الكلاب فقط . لان القطة تنظف نفسها بلسانها فلا تترك ذرة تراب فى فروة جلدها . ولكن العلماء يؤكدون انه رغم هذه النظافة المؤكدة فانها تنقل الميكروب ايضا . بدأ الناس يشعرون بالخوف من القطط والكلاب ويحترسون فى معاملتها وفى الاقتراب من أظافرها وانيابها وفمها .. ورغم تحذيرات الاطباء فان الناس مضوا يحبون القطط والكلاب ويطعمونها ويقبلونها . وأكثر الاطباء يحذرون من القبلات بين الرجال والنساء ويرون أن الفم أقل مكان فى الجسم كله نظافة وطهارة . وان العدوى مؤكدة من طريق الفم . فهل سمع الناس هذه النصيحة ؟ طبعا لم ولن يسمعوها . ويقول أطباء آخرون : (ان الفم يتغير طعمه ويصبح اللعاب قاتلا للميكروبات عند القبلات الحارة . وان القبلات التى تنقل الميكروبات هى الباردة التى لا احساس فيها) .

وليست كل القطط مفيدة : اى تقتل الفئران ، انها القطط الضالة أى أن القطط التى تفيد الانسان هى التى لاتستفيد من الانسان .

* * *

ولكن عرف الانسان ان القط حيوان نظيف ، ولكنه غبى ومنيد .. وليس مفيدا مثل الكلاب . فالكلاب يسهل عليها أن تتعلم . فتكون للحراسة وللصيد ولانقاذ الجرحى فى الحرب والسلام ..

www.alkottob.com

وقد حصلت الكلاب على نياشين عسكرية . وصعدت سفن الفضاء.

وعاش الناس الوف السنين يتغنون باخلاص الكلب لصاحبه ووفائه حتى الموت : فكثيرا ما عاشت الكلاب تحت أقدام اصحابها، حتى اذا مات الصاحب امتنع الكلب عن الطعام حتى الموت . وفى القرآن الكريم قصة اهل الكهف الذين ناموا فى كهفهم وظل كلبهم نائما بالباب اكثر من مائتى سنة ..

وكان نوم الكلب واسمه « قطمير » رمزا للوفاء الطويل،والانتظار الذى لا يعرف الملل !

وكان من عادة الناس فى الريف المصرى أن يكتبوا على خطاباتهم كلمة « قطمير » — حتى لا يضيع الخطاب !

حتى جاء عالم روسى اسمه بافلوف فجرد الكلاب من وفائها ونزع من السعادة الانسانية كلها حبها لاخلاص الكلاب .. أو حبها للاخلاص فى الكلاب . وخرج بنظرية تقول : لا الكلاب عندها اخلاص ولا الانسان عنده وفاء .. وانما كل ما هنالك مجموعة من الأفعال والأفعال المنعكسة المترابطة .. مثلا : اذا اتينا بالكلب وقدمنا له الطعام وفى نفس اللحظة رحنا ندق جرسا . فان لعاب الكلب يجرى مع رؤية الطعام وصوت الجرس .. واذا سمع صوت الجرس دون طعام فان لعابه يجرى .. وكل تصرفات الحيوان والانسان مثل هذا الكلب تماما .. فالكلب الذى يرى صاحبه فينام عند تقديمه او ياكل او يشرب .. ويعتاد على ذلك ، فاذا تغيب الصاحب لسبب ما ، فان هذا الكلب لا ياكل ولا يشرب .. لا حبا ولا اخلاصا .. ولكن مجرد فعل ورد فعل .. فلا اخلاص ولا وفاء لا عند الناس ولا عند الكلاب !

www.alkottob.com

ولكن الناس يرون فى الكلاب رغم ذلك ، اخلاصا وحبا وطاعة عمياء ـــ يفتقدونها بين الناس !

* * *

واذا كانت اديبة فرنسا كوليت قد كتبت كثيرا عن الحيوانات فلا يناسبها الا اديب بلجيكا مترلنك الذى الف كتابا عن « حياة النحل ». وهو لا يقصد النحل بالذات .. ولكن ينظر لمى الانسان من خلال النحل .. ويتمنى لو كان للانسان بعض مالدى النحل من حب واخلاص وصدق وتعاون وانكار للذات .. ولكن احدا لا يستطيع ان يالف النحل او يستانسه او يجعله طبعا مثل الكلاب .. ولذلك بقى النحل مثل كثير من الحشرات والحيوانات التى يراها ولا يقترب منها اى يعجب بها من بعيد ! .

واستفاد الانسان من طائر قديم واستخدمه فى نقل الرسائل من مكان الى مكان هذا الطائر هو « حمام الزاجل » وقد استخدم الفراعنة هذا الحمام .. واستخدمه الاغريق . ويقال ان البحارة الاغريق كانوا يطلقون هذا الحمام قبل نهاية الرحلة التى يقومون بها . ويعود الحمام الى مكانه وفى جناح كل منها او فى رجلها علامة وهذا معناه ان البحارة قد وصلوا فى سلام .. وفى ذلك الوقت لم يكن احد يعرف وضع الرسائل فى سيقان حمام الزاجل .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية توقف الاوروبيون . لاسباب غير معروفة الآن من استخدام حمام الزاجل الذى انتشر فى الشرق الاوسط . فقد كان خلفاء بغداد يسرفون فى استخدام حمام الزاجل . فلا يوجد قصر من قصور الخلفاء أو الولاة ليس به برج أو قفص . وكثيرا ما يكون قفص حمام الزاجل فى قاعةالاستقبال فى قصر الخليفة . وكثيرا ما تلقى الخليفة أو السلطان او الوالى

www.alkottob.com

مفاجأة تهبط من السماء عليها ويفتحون رسالة الحرب أو السلام أو الحب ..

وفى سنة ١٥٩٠ عندما حاصر ملك فرنسا هنرى الرابع مدينة باريس ، لم يجد الفرنسيون وسيلة للافلات من هـذا الحصـار الا بحمام الزاجل يطلقونه فى سماء باريس يحمل الاخبار ويحمل اليهم الاخبار .. ويقال ان الانجليز قد استخدموا الصقور واطلقوها على الحمام ولكن الحمام اسرع فى الطيران ، واكثر طاعة لغريزته ولكن الصقور لم يكن من السهل ترويضها أو التحكم فى طيرانها أو انقضاضها على حمام الزاجل .

ومن اشهر حوادث حمام الزاجـل فى القرن التاسـع عشر ان المليونير اليهودى روتشيلد كان يتابع معركة واترلو بين نابليـون وولنجتون . وارسلوا له اخبار المعركة عن طريق حمام الزاجل . ولم يكن احد يشك فى ان نابليون هو الذى سوف ينتصر . ولذلك هبطت اسعار البورصة . وتقدم روتشيلد واشترى كل الاسـهم لان الحمام نقل اليه ان ولنجتون الانجليزى هو الذى انتصر . وقد عرف روتشيلد هذه الانباء قبل ان تعرفها الحكومة البريطـانية . وارتفعت الاسهم وعاد روتشيلد وباع كل ما عنده . فكسب الملايين!

وفى سنة ١٨٤٠ استخدم الصحفى الالمانى رويتر حمام الزاجـل بين فرنسا وبلجيكا ، حيث لا توجد خطوط تلغرافية .

ورغم وجود الخطوط التلغرافية ظل استخدام حمام الزاجـل منتشرا بين الدول وقد ظهر حمام الزاجل بصورة واضحة جدا فى الحرب بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ . ومن اشهر الرسـائل التى عرفها المقاتلون فى ذلك الوقت ما بعث به مستشـار المانيـا بسمارك فقد ارسل رسالة مع حمامة لاحد قواده . الرسالة تقول: طبعا فهمت !

To: www.al-mostafa.com
www.alkottob.com

وواضح انه يخشى أن تقع هذه الرسالة فى يد الفرنسيين .ولكن القائد فهم ما يقصده بسمارك .. ولم يفهم احد غيرهما شيئا حتى اليوم !

وكان الفرنسيون يضعون حمام الزاجل فى بالونات . ويطلقون البالونات الى السماء . وبكل بالون قفص . ولا يكاد يرتفع البالون ويخرج من المناطق المحاصرة حتى يدفع الحمام باب القفص ويخرج. ويقال أن حمام الزاجل قد حمل أكثر من مليون رسالة الى اهل ماتتى الف فرنسى .

وعيب حمام الزاجل ان نشاطه محدود . فهو يعود الى المكان الذى عاش فيه . والذى يحدث هو أن الناس ينقلون الحمام الى اى مكان ثم يطلقونه فاذا به يعود الى مكانه الاصلى ..

مهما كانت المسافة .. قد تكون الفا او عشرين الف كيلو متر .. ويستطيع حمام الزاجل أن يطير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ولا يتوقف عن الطيران حوالى العشرين ساعة ..

ولكن رجلا ايطاليا وجد حلا لهذا النشاط المحدود لحمام الزاجل فقد قرأ عبارة للشاعر الالمانى شيلر تقول : مالم يتمكن العقل من السيطرة على كل شىء ، فان الجوع والحب قادران على أن يتحكما فى تصرفات الناس !

قرأ رجل ايطالى اسمه مالاجولى هذه العبارة وكان يحب حمام الزاجل ففهمها على هذا النحو : ان تجويع حمام الزاجل هو الذى يجعله يطيع الاوامر .. وابعاده عن انثاه ايضا .

ولذلك لجأ مالاجولى الى حيلة .. فكان حمام الزاجل اذا هبط عنده اطعمه كثيرا .. ولكن ابعده عن الانثى او عن الذكر حتى

www.alkottob.com

لا يكون جنس .. ثم نقله الى مكان آخر حيث يكون الجنس .. وبعد التمرين اصبح حمام الزاجل بدلا من أن يهبط فى مكان واحد ، فانه يهبط فى مكانين .. وكان هذا هو أول تعديل فى سلوك حمام الزاجل !

غير أن العلم الحديث لم يهتد الى تفسير واحد لسلوك حمام الزاجل . هناك راى يقول : ان الحمام يهتدى بجاذبية الارض .. وراى يقول بضوء النجوم .. وراى يقول انها ملوحة الهواء او الماء .. وراى يقول بان هناك بوصلة فى راس حمام الزاجل يضبطها ذهابا وايابا .. ولكن لا يوجد تفسير واحد يقنع الجميع ..

وقبل ان تعلن الحرب العالمية الاولى بليلة واحدة كانت الجيوش تنظم حمام الزاجل وتكشف عليها وتطعمها .. تماما كما تفعل بقواتها المسلحة قبل دخول المعركة . وفى المانيا وحدها فى ذلك الوقت ثلاثة آلاف جمعية لتربية حمام الزاجل ..

وحاول الكثيرون ان يلقنوا حمام الزاجل دروسا اخرى كما فعل الهاوى الايطالى مالاجولى .. ولكن لم يصلوا الى نتيجة معقولة .. ولكن رجلا ايطاليا آخر هو الذى الغى مهمة حمام الزاجل تماما . ذلك الرجل هو ماركونى الذى اكتشف الاتصالات اللاسلكية بين الدول .. ولم يعد هناك ما يخيف احدا او يعوقه .. فالعالم كله اصبح قريبا جدا .. ففى امكانك ان تتصل بأى مكان فى نفس اللحظة وانت جالس فى بيتك !

* * *

ولا شك ان ذكاء القط اقل من ذكاء الكلب . وكلاهما محدود الذكاء . والقدرة على تعلم هذه الحيوانات محدودة ايضا . وحمام

www.alkottob.com

الزاجل ليس ذكيا ولكنه ينطلق غريزيا وبصورة لا نجد لها تفسيرا علميا .

وربما كان الحصان اذكى هذه الحيوانات جميعا . فقد استطاع أحد النبلاء الالمان أن يجعل حصانا اسمه هانس أن يكتب بساقه الارقـــام .. أو أن يعلمه الجمـــع والطرح والضرب ، فكان يكتب المئات بساقه اليسرى والعشرات بساقه اليمنى . ولم يحدث انه اخطأ قط ..

واستطاع النبيل الالمانى فلهلم فون دوستن أن يجعل الحصان يكتب كلمات المانية طويلة ..

واستطاع ايضا أن يروض أحد الخيول العربية على كتـــابة اللغة الالمانية بحتة . هذا الحصان اسمه « عربى » وكان عربى يخطىء فى كتابة بعض الحروف ويصر على ذلك . ولكنه كتب اكثر من مائة وخمسين كلمة المانية ..

وجاءت الحرب العالمية الثانية وشغلت الناس عن تلقين الخيول ان تتعلم او تتكلم ..

* * *

ولكن اثر هذه الحيوانات وهذه الحشرات وهذه الميكروبات فى تاريخ الانسان طويل عريض .. ولكنه لم ينته بعد . وكل ما على الانسان فقط أن يسجل ما يحدث له بسببها ، وما يحدث لها بسببه .. ولكن فى ذهنه دائما انها هى الاقوى رغم ان احدا لا يصـــدق ذلك ، او لا يريد !

www.alkottob.com

عندما أعلن حوسولينى حرب الأبقار ضد الأغنام!

ليس بالخبز وحـــده يعيش الانسان . وانما يعيش الانسان بالخبز واشياء اخرى . واذا لم يجد الانســـان الخبز ، فلابد ان يبحث عن شيء آخر بديل .. وملكة فرنسا عندما ثار الشعب عليها يطلب الخبز . قالت الملكة : ولماذا الثورة اذا لم يجدوا الخبز : فليأكلوا البسكويت . وكانت هذه العبارة امطارا من البنزين على نار الغضب. فالملكة ظنت ان الشعب يجـــد الخبز والبسكويت معا . فاذا لم يجد هذا فيمكنه ان يتجه الى ذاك..

ولم تفهم الملكة ان الشعب لا يجد الاثنين . ومهمة العلم الحديث الآن هى ان يجد الناس الخبز والبـــديل عن الخبز حتى لا يثور . او حتى لا يموت .

والناس لا يموتون عادة بسبب الجوع فقط . وانما بسبب المرض، أو بسبب الحوادث أو بالحروب . ولذلك من الضرورى أن يكون عدد الناس محددا حتى تكفيهم موارد الطبيعة .. فاذا لم تكف فعلى

www.alkottob.com

الانسان أن يهز راسه ليجد حلا لهذه المشاكل الحيوية . وقد وجد الانسان الحل عن طريق الكيمياء . فهى تعوضه من الذى فقده . وهى التى تملأ فراغ الجيب والمعدة ..

فالانسان مثلا عندما كان يجد السكريات فى عسل النحل اتجه الى تربية النحل ، وعندما عجز عن اطعامه اتجه الى استيراد السكر من القصب ، ثم راح يعتصر السكر من البنجر . وكان ذلك أيام نابليون وفى حروبه .

وظل النحل حشرة هامة جدا فى ليالى أوروبا . فالنحل مصدر الشمع ، والشمع هو رونق الكنائس . وظلت الكنائس هى المستهلك الاول لشمع العسل . وعندما انتشر الغاز ومنبعدهالكهرباء لميعد احد فى حاجة الى شمع النحل .. وبعد ذلك ظهر السيكارين ليعلن انه ليس من الضرورى أن يميت الانسان نفسه من أجل السكر فى القصب وفى البنجر وفى العسل .. وعندما اعلن ان السيكارين خطر على الصحة ، وانه يؤدى الى الاصابة بالسرطان عاد الناس الى عسل النحل وعندما أعلن أن النحل أيضا يموت من المبيدات الحشرية الموجودة فى الحدائق . وان السموم موجودة فى الزهور التى يمتصها النحل ، وان نسبة من السم تنقل الى العسل نفسه ، عاد الانسان ليبحث عن السكريات فى الفاكهة.ولكن سموم المبيدات الحشرية قد انتقلت ايضا الى الفاكهة . وعندما حار الانسان ما الذى يفعله قال له الأطباء أن الجسم الانسانى قد تشبع بالسموم فلا خوف عليه . هنا عاد الانسان الى البحث عن السكريات من كل مصدر .

ولم يعد السمن او الزبدة كافية لاطعام الانسان . وقد ظهرت هذه المشكلة أيام حملات الجيوش الفرنسية فى المناطق الاستوائية . فالجنود يحتاجون الى الزبدة . ولكن الزبدة تذوب فى الجو الحار .

www.alkottob.com

وقد تلقى نابليون الثالث خطابا من احد قواده يقـــول له : مطلوب معجزة . ان جنودنا لا يجدون الزبدة فالحر جهنم . والزبدة تتبخر. واعلن نابليون عن مكافاة ماليةكبيرة لمنيجدحلا . وفى ذلك الوقت تصادف ان احد العلماء الفرنسيين كان مشغولا بالبحث من حل .

هذا الرجل اسمه ميج موريس . هذا الرجل اهتدى الى السمن الصناعى . وصنع هذا السمن من مواد نباتية وحيوانية معا . فاستخدم الدهون الحيوانية وبعض الزيوت النباتيـــة . وكان ذلك ميلاد السمن النباتى أو الصناعى . وانتجت فرنسا هذا السمن على نطاق اوسع . ثم جاءت هولندا فاستخدمت بعض الزيوت النباتية وزيت الحوت وانتجته بكميات اكبر . واشتهرت هولندا بذلك لدرجة ان كثيرا من الدول تطلق على كل انواع السمن الصناعى اســـم : الهولنـــدى ..

واقبل على هذا السمن الصناعى فقراء الناس طبعا.اما الاغنياء فعندهم الموارد الطبيعية الغالية الثمن ..

وفى اثناء الحرب العالمية الثانية حاول الالمان استخراج الزبدة من الفحم . ونجحت التجربة . ولكن لم يتحمس لها احد . وانما جعلوها نكتة . ووقفت تجارب السمن من الفحم عند هذا الحد ، ولم يدفعها احد الى الامام الا بعد ذلك بعشرات السنين فى امريكا .

وعاد الالمان الى استخراج الســـكر من الخشب . واستخراج السيكارين من القطران فى سنة ١٨٧٩ . وكان السيكارين هذا اشد حلاوة من الســـكر ٥٠٠ مرة وباســـعار ارخص من استخراجه من الخشـــب .

www.alkottob.com

ولم يفلح العلم الحديث فى استخراج بروتينات الحيوانات فى المعامل . ولذلك عاشت الحيوانات ليأكلها الانسان . ولكن هذه الحيوانات دفعت ثمن هذه الحياة غاليا . فلكى يكون طعمها لذيذا يجب أن نذبحها فى سن صغيرة !

واذا كانت بعض الأطعمة لا تكفى الانسان ، فهناك الصوف الطبيعى والحرير الطبيعى والقطن والكتان ، كلها لم تعد كافية لاحتياجات الانسان صحيح أن الاقمشة هى ليست الا نوعا آخر من ورقة التوت التى تغطت بها حواء .. والأزياء ليست الا تنويعا فى شكل ورقة التوت . وقد جاء وقت على الانسان كان كل شىء امامه متوافرا فى الطبيعة . أما فى العصور الحديثة ، وبعد تزايد السكان لم يعد الصوف يكفى للملابس ولا الحرير ولا القطن ولا الكتان . فالانسان يأكل الأغنام . ودودة القز تعمل حتى الموت ، ولكن الانسان يطلب المزيد . ولذلك كان لابد من أن يجد حلا. والذين حاولوا كثيرون جدا . وربما كان الكيميائى الانجليزى روبرت هوك سنة ١٦٦٥ هو اول الذين حاولوا ان يجدوا بديلا من الحرير الطبيعى فقد اهتدى الى محلول . وصب هذا المحلول فى اناء به ثقوب رفيعة . ونزل السائل على شكل خيوط حريرية .

واهتدى كيميائى فرنسى الى شىء من ذلك ، وعرض اختراعه فى باريس سنة ١٨٨٩ هذا الرجل شاردونيه . وحاول الالمان شراء الاختراع . فاعتذر الرجل بانه باهظ التكاليف . وانه سوف يوالى البحث عن سوائل ارخص . وقامت ثورة بين علماء الكيمياء وبين الذين يربون دود القز والذين ينسجون الحرير . وكانت التهمة: ان هؤلاء العلماء يريدون خراب العالم والقضاء على مئات الالوف من الأنوال اليدوية لغزل الحرير الطبيعى !

www.alkottob.com

وعلى الرغم من أن اليابان هى أكبر مصدر للحرير الطبيعى ، فانها حاولت أيضا أن تجد بديلا عنه حتى لا تتفوق عليها الدول الصناعية أو التجارية الأخرى . ان اليابان أرادت أن تغزو البلاد الأخرى قبل أن تتعرض هى لغزو يخرب بيوتها ويبيد ديدان القز عندها . وفى نفس الوقت كانت مدينة ليون الفرنسية مركز تجمع خيوط الحرير الطبيعى فى أوربا كلها وحاول العلماء فيها أن يجدوا علاجا للموقف. فاقبل بعضهم على دراسة الحرير الصناعى واستحضاره فى المعامل.

أما الامريكان فقد كانوا أسرع الجميع فى الاهتداء الى خيوط جديدة اختاروا لها اسما يونانى الشكل: نايلون . ونجح الامريكان فى اختراع انواع من الخيوط ناعمة طويلة . يمكن أن تصل الى الوف الكيلو مترات دون أن تنقطع .

وقبل الحرب العالمية الاولى بالضبط اهتدت المانيا واليابان فى وقت واحد الى صناعة الصوف — أى الى الصوف الصناعى . ودخلت اليابان فى حرب مع استراليا أكبر مصدر للصوف الطبيعى فى العالم . وهاجمت دول كثيرة الصوف الصناعى فى المانيا واليابان، باعتباره « جنونا » نازيا أو فاشيا . وأن هذا الصوف كساء الفقراء. وأن هذا الصوف الصناعى اختراع حقير يقصد افساد جمال الطبيعة — أو جمال صوف الأغنام فى استراليا ، حتى تبقى استراليا هى سيدة هذه الصناعة ، وتظل بريطانيا هى صاحبة هذه التجارة . أما العالم كله فيجب أن يرضى بأن يكون زبونا ذليلا !

اذن لقد دخلت المعامل فى حرب مع الأغنام ودود القز :

بل ان الأبقار هى التى دخلت فى حرب مع الأغنام . فقد اهتدى

www.alkottob.com

العلماء الى ان لبن الابقار هو احسن مصدر للصوف الصناعى .

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٥ اعلن موسوليني على الشعب الايطالى وعلى العالم : أن ايطاليا سوف تنتج الصوف من لبن الابقار . وكان هذا الاعلان ردا على تهديد أوربا لموسوليني بأنها سوف تضرب عليه حصارا شديدا بسبب حربه مع الحبشة . واقبل علماء الكيمياء على البان الابقار يحولونها الى خيوط صوفية مستخدمين من اللبن مادة الكازين . ومن العجيب جدا أن الفراعنة استخدموا اللبن فى تثبيت الالوان . هذه حقيقة مؤكدة . وانهم استخدموا هذه المواد بنفس الطريقة التى اهتدى اليها علماء الكيمياء ! واستخرج الايطاليون مادة لانيتال . ومن هذه المادة خرجت البدل والبنطلونات الايطالية ، ولا تزال !

ولصبح لبن الابقار من اهم المواد التى يستعين بها العلم الحديث فى صناعة البدائل او العجائن ..

كما أن العلم الحديث قد استغنى ايضا من المخلفات الحيوانية الاسمدة العضوية . واهتدى العلم الحديث الى الاسمدة الكيماوية فى تخصيب التربة . وفى تغذية النباتات التى تعرش عليها الحيوانات التى يعيش عليها الانسان .

وهناك بعض المنتجات الحيوانية لم يعرف الانسان لها بديلا بعد. او عرف لها البديل ، ولكن ليس بالدرجة المطلوبة . فراء الثعالب مثلا لا يزال مطلوبا . وكانت الصين حتى اوائل القرن التاسع عشر اكبر مركز لتجارة الفراء بكل انواعها حتى أن أمريكا انشأت خطا

www.alkottob.com

ملاحيا بينها وبين الصين . ولكن رجلا أمريكيا اسمه : استور اقام مركزا فى شمال أمريكا . بل انه انشأ مدينة اسمها استوريا . كلمة هامة تجدها على ماركات السجائر وغيرها وعلى الفنادق الكبرى. فهذا الرجل استور قد حول بذكاء تجارة الفراء الى شمال امريكا ودخل بها فى حرب مع روسيا وجاء الانجليز واستولوا على هذه المدينة . ثم استردتها أمريكا . وبقى الانجليز سادة هذه التجارة .

حتى وقع حادث عجيب سنة ١٩١٩ عندما ذهب بعض التجار الكنديين يعرضون نوعا غريبا من فراء الثعلب الفضى . وكان هذا النوع من الفراء زلزالا فى أسواق الفراء . فقد استطاع هؤلاء الكنديون أن يختاروا عينات من الثعالب وأن يزاوجوا بين بعضها البعض حتى انتهى التزاوج والتهجين الى نوع فضى نادر . ولكن بسرعة عرف العالم سر هذا الثعلب .واقبل التجار على تربية الثعالب فى غابات واسعة . فقد لاحظ التجار أن الثعالب التى يحبسونها يكون فراؤها خشنا .أما اذا عاشت الثعالب فى ظروف طبيعية أو كالطبيعية فان فراءها يكون اكثر نعومة وليونة . ولاحظوا ايضا أن الثعلب يميل الى أن تكون له زوجة واحدة مما يؤدى الى الزيادة البطيئة فى النسل . فحاولوا أن يعددوا زوجات الذكور . ولكنها رفضت أول الأمر . فامسدوها فأصبحت للثعالب الذكور أكثر من زوجة . وانتهوا الى أن ثلاث زوجات هو الحد الاقصى للثعلب الواحد .. ولكن اهتدى علماء الكيمياء باستخدام بعض المقويات الى أن الثعلب من الممكن أن يكون له حريم من اناث دون أن يؤثر ذلك على فراء صغاره.

وفى ذلك الوقت ـــ أى سنة ١٩٢٤ كان ثمن فراء الثعلب الفضى سبعة آلاف جنيه !

وجاءت الحرب الثانية فأوقفت هذا الجنون . وفى سنة ١٩٣٨

www.alkottob.com

دلت الاحصائيات على ان فى كندا وحدها اكثر من عشرة آلاف حظيرة للثعالب الحظيرة الواحدة مساحتها الوف الافدنة من الغابات !

وظهر منافس خطير للثعلب : حيوان الشنشيلا فى بيرو ..

ثم ظهرت افنلم كاركول فى ايران .

وكان التجار يلجأون الى اجهاض الأم قبل أن تلد بقليل ثم يسلخون جلد الوليد . حرصا على أن تظل فروة الحيوان المسكين اكثر نعومة . وفى بعض الأحيان يسلخون الولد بعد ولادته العـــادية بساعات ..

ولابد أن اناقة المراة هى المسئولة عن حياة بعض الطيور وموت اكثر الحيوانات . مثلا : لولا ان سيدة فرنسية جاءت من الجزائر تزور مارى انطوانت ما عاشت مئات الالوف من النعام . فقد جاءت هذه السيدة تهدى الى الملكة ريش نعام لتضعه على راسها او لتكون مروحتها . واصبح ريش النعام موضة . واقيمت مزارع للنعام فى الجزائر . وحوت هذه المزارع عشرات الالوف من هذا الطائر الذى ينزعون ريشه مرتين فى السنة . وكان لابد من العناية به وبصحته نظرا لرواج تجارة ريش النعام . ولاحظ تجار الريش ان ذكر النعام اذا كانت له اناث كثيرة ، وضعت الاناث بيضا قليلا . فهى اذن ليست مشكلة الانثى . وانما هى مشكلة قدرة الذكر على ان يكون زوجا لعدد كبير من الاناث . وحددوا للذكر ثلاث اناث فقط تضع مائة بيضة فى السنة .

وبعد ذلك جاءت التماسيح . فهذا الحيوان لابد من قتله ليكون

www.alkottob.com

جلده حذاء أو شنطة أو حزاما لسيدة انيقة . ولابد ان يكون ذلك فى سنه الصغيرة . وبعد سلخه لابد من دباغة الجلد وتلوينه أو الاحتفاظ بلونه الطبيعى ..

وفى كاليفورنيا مساحات هائلة مغلقة على التماسيح .

وجاءت الثعابين لتقوم بنفس دور التماسيح . فجلدها حزام أو جزمة أو شنطة . والثعابين كثيرة الانواع والاحجام والالوان . ولكن الثعابين لها مهمة حيوية فى البلاد الحارة . ففى الهند مثلا تجد أن الثعابين تأكل الفئران . والفئران اذا تكاثرت أكلت محاصيل القمح والذرة . ولذلك يجب الابقاء على الثعابين لانقاذ الغلال . وفى الهند دعوات صارخة للابقاء على الثعابين من أجل الجياع من البشر ! ولكن المرأة حريصة على اناقتها ولو مات اهل الهند جوعا !

ومن اجل اناقة المرأة ايضا نزل الرجل الى اعماق البحر بحثا عن اللؤلؤ فى قلب البحار . وهذا اللؤلؤ موجود فى الخليج العربى — او كان موجودا — وفى شواطىء اليابان والصين.وقد ارتفع اللؤلؤ على اعناق الجميلات . ويقال أن اللؤلؤة تحزن على صاحبتها ويتغير لونها . ويقال أن لونها يتغير اذا بعدت عن موطنها . ويقال: ان الملائكة اذا بكوا نزلت دموعهم الى البحر فاصبحت لوليات ! وكثيرا ما قيل أن اللؤلؤ اذا ذاب فى النبيذ فى ليالى العشق اصبح سحرا . وسعادة للرجل والمرأة — يقال !

اما طريقة استخراج اللؤلؤ فهى أن ينزل الغواص او الغواصة — اكثرهم من النساء — الى المـاء ... ويصيدون حيوان اللؤلؤ

www.alkottob.com

ويفتحونه ويستخرجون من بطنه حبات اللؤلؤ .. وحيوان اللؤلؤ يستغرق وقتا طويلا يصل الى السنة والسنتين فى تكوين حبة واحدة .

وقد اهتدى رجل صينى منذ سبعة قرون الى انه فى الامكان مساعدة هذا الحيوان على انتاج اللؤلؤ بصورة اسرع . فكان يفتح المحار ويضع فيه حبا صغيرا .. ذرة رمل او ذرة من الحصارة او الحصى .. وفى بعض الأحيان اهتدى الى شىء غريب فكان يضع حصاة صغيرة ويرسم على هذه الحصاة بوذا . ويضعها بعد ذلك فى جسم حيوان اللؤلؤ .. ثم يجىء هذا الفنان العظيم ويغطى هذه الصورة لبوذا باللؤلؤ .. ويكون لحبة اللؤلؤ بعد ذلك سحرها العميق فى نفوس المؤمنين ...

وجاء استاذ ياباني سنة ١٨٨٩ وقام بتطوير هذه الحيلة . هذا الاستاذ اسمه متسكورى . وادخل فى جسم حيوان اللؤلؤ حبات صغيرة من الصدف . ويجىء الحيوان ويغطيها بهذه المادة الفضية الشفافة .

* * *

ولكن رجلا واحدا استطاع ان يجعل « اللؤلؤ الصناعى » اشهر تجارة فى العالم واستطاع ان يقنع العالم كله ان اللؤلؤ الصناعى اجمل واروع . وانه يصعب على اى انسان ان يفرق بين الاثنين . وفى ذلك الوقت كان التمييز صعبا . ولكن من السهل معرفة ذلك الآن بمجرد وضع اللؤلؤ فى الضوء فيكون اللؤلؤ الطبيعى اكثر شفافية من اللؤلؤ المزروع فى جسم حيوان اللؤلؤ . هذا الرجل

www.alkottob.com

ميكوموتو الذى اشترك فى المعرض الدولى للؤلؤ باكثر من مائة الف حبة .. وصنع ناقوس الحرية الامريكى من اللؤلؤ . وقدمه فى معرض دولى ..

وقد رأيت جزيرة ميكوموتو هذه فى اليابان . ورأيت ملايين من حبات اللؤلؤ . واعترف بأننى لم أعرف اهمية هذا اللؤلؤ اوضرورته لأحد . وقد كنت العب بحبات اللؤلؤ لعبة الجوز والفرد . نتجد بالمئات اللؤلؤ يجلسن على الأرض . وقد وضعت كل واحـدة « قلة » من اللؤلؤ .. واجلس امامها والعب : جوز ولا فرد .. ونفتح محار اللؤلؤ .. نجد أحيانا حبة واحدة واحيانا حبتين او ثلاثا .. واذكر اننى كسبت فى هذه اللعبة الوف الحبات . ولا اذكر الان بالضبط اين نسيت هذه الحبات عندما سافرت من اليابان الى جزر هاواى الى امريكا الى اوربا بعد ذلك .

فقط عندما رجعت الى مصر عرفت اننى اضعت ثروة طائلة — ولم اكن ادرى ذلك — فقد كنت مشغولا فقط بالفرجة والكتابة والسفر ، وهى جميعا اروع من كل ما فى العالم من لؤلؤ — واعتقد ان اكثر نساء العالم لا يرين هذه الفلسفة !

www.alkottob.com

شجرة واحدة تكفي:
هزها وانت تعرف!

بعد هـذه الرحلة الطويلة فى حياة الحيوان ، هل له مستقبل ؟ هل ستتحول الحيوانات بعضها الى بعض ، كان يكون القرد انسانا ؟ هل تتحول بعض الزواحف مرة اخرى وتكون طيورا ؟ هل تزداد الاصابع فى اقدام الحيوانات ؟ هل الانسان نفسه سيكون كائنا آخر ؟ ان عشرات الالوف من السنين لم تغير من الحمار . فهو حمار منذ كان حمارا . والخنزير كذلك ..

ان نظريات العلماء من مدرسة دارون قد لاحظوا التشابه الكبير بين القرود والانسان . وقال بعضهم : أصله قرد — أى الانسان أصله قرد وعلى ذلك فمن الممكن ان يتطور القرد فيصبح انسانا فى المستقبل . صحيح ان التاريخ لم يحفظ لنا حتى الآن تلك القرود التى تحولت الى انسان . ثم انه ليس بين القرود فصيلة واحدة تعرف النطق أو تعرف كيف تغير من أسلوبها فى الحياة . وكل ما يقوله العلماء هو ان مرحلة من مراحل تحول القرود الى بشر ، قد فقدناها .. او قد ضاعت منا . ولكن ليست هذه اجابة

www.alkottob.com

.. انما هى اجابة تغرى بالتساؤل : ولكن لماذا هذه المرحلة بالذات ؟ من الذى حرص على اخفائها لكى يدوخنا بعد ذلك ؟

اذن يمكن أن يقال : بأن هذه الحيوانات لم تتحول الى حيوانات اخرى فى مئات الالوف من السنين فلن يطرأ عليها اى تغير آخر .. لان الماضى هو صورة المستقبل ، أو هو الحروف الأولى من الماضى والمستقبل !

علماء الجيولوجيا يقولون : اننا مقبلون على عصر جليدى آخر .. وان المناطق الشمالية والجنوبية من الأرض سوف تتغطى بالجليد .. وسوف يؤدى ذلك الى انقراض حيوانات اخرى كثيرة . تماما كما انقرض حيوان الماموث عندما هاجر الى الشمال فمات من البرد .. وفى نفس الوقت استطاعت حيوانات أصغر حجما واضعف قوة من التكيف مع البيئة فعاشت . فالقوى الذى لا يجارى البيئة يموت ، والضعيف الذى يجاريها يتقيها ويعيش . انهـا قاعدة فى الحيوان وفى الانسان ايضا !

* * *

ثم هذه الزواحف الضعيفة هى بقايا مملكة هائلة كانت تعيش على الأرض ، هل هى ايضا سوف تنقرض .. علماء الجيولوجيا يقولون : هذه نهايتها لا محالة . ولكن لماذا ؟

الجواب انه يجب أن ننظر الى : الظروف الحيوية .. أو الى البيئـة الحيوانية والنباتية والانسانية والجوية أى الحيـاة (الاجتماعية) أو (الجماعية) للحيوانات معا .. ولسنا فى حاجة الى أن نسافر الى غابات الامازون الهائلة أو الغابات الهنـدية أو الواحات الافريقية والاسيوية كما كان يفعل دارون وبقية العلماء فى القرن التاسع عشر .. وانما شجرة واحدة تكفيك . هزها .

www.alkottob.com

وانت ترى الفراشات والحشرات المتسلقة : هذه الشجرة مثل فنجان فى يد قارئة الطالع .. مثل كوتشينة يلعبها قارىء الحظ .. ولكن هذه الشجرة تستطيع أن تعرف كيف تتعايش هذه الكائنات معا .. أو كيف يتربص بعضها ببعض أو يعيش بعضها على بعض .. نظرة واحدة الى شجرة تدلك على مستقبل حياة هذه الكائنات، معا ومستقبلها مع الانسان — وهو الأهم . فلا يزال الانسان هو الذى يحدد لهذه الكائنات اعمارها ومستقبلها . فمثلا فى الهند : الثعابين تعيش على الفئران ، والفئران تعيش على القمح وعلى القمح يعيش الانسان .. اذا قتلنا الثعابين زادت الفئران وأكلت القمح وأرهقت لانسان .. واذا قتلت الثعابين والفئران وانفردت الدودة بالقمح جاع الانسان . واذا قتل الانسان الدودة ايضا توفر له القمح .. ولكن فى نفس الوقت اذا زاد عدد الناس ولم يجدوا القمح مات الانسان .. انها سلسلة طويلة من الكائنات يعيش بعضها على بعض . والمستقبل فى يد الانسان .

مثلا : البعوضة تنقل الحمى الصفراء . يقضى الانسان على هذه البعوضة باستخدام المبيدات وباستخدام وسائل العلاج عاش الانسان وماتت هذه البعوضة أو انقرضت !

واذا نظرنا الى الانسان القادر على كل الحيوانات لم نجد هذا الانسان يفوق الكثير من الحيوانات من الناحية الفسيولوجية — اى من ناحية وظائف أعضاء جسمه . فهناك شبه كبير بين الانسان والقرد والحصان والضفدعة والأرنب . أو بين الانسان والحصان فى نمو الجنين وفى الحمل والولادة وفترة الحضانة الطويلة .. فالانسان ينمو ببطء .. ورغم هذا التشابه فان الانسان هو الاقوى.

وأهم من ذلك أن الانسان لا يزال أكثر الحيوانات الكبيرة عددا .

www.alkottob.com

فقد أعلن المعهد الدولى للزراعة فى روما عن عدد الحيوانات الكبرى على الأرض بعد الحرب العالمية الثانية فكانت هكذا : فى العالم ٧٠٠ مليون بقرة و ٦٠٠ مليون من الاغنام . و ٣٠٠ مليون خنزير و ١٠٠ مليون حصان .. ومثل هذا العدد من البشر أو أكثر. فعدد سكان العالم حوالى الفى مليون نسمة .

ومن المعروف عندنا أن خسائر الانسان فى الحرب العالمية الثانية كانت هائلة . لاشك فى ذلك . وأن هذه الخسائر تساوى الدموع التى سالت على خدودنا حزنا على ما أصاب الانسان على يد الانسان . ولكن خسائر الحيوانات فى هذه الحرب كانت أضعاف خسائر الانسان .

فى أمريكا ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ زاد عدد سكان العالم ١٠ ٪ .. ونقص عدد الحيوانات .. وزاد عدد الأبقار فى أمريكا بسبب العناية الفائقة بمزارع وحظائر تربيتها . بينما نقص عدد الخنازير ١٨ مليونا وعدد الاغنام ٢٦ مليونا وعدد الخيول ١٨ مليونا !

وفى أثناء الحرب الاهلية فى الصين نقص عدد الطيور بمقدار ٢٠٠ مليون ونقص عدد الطيور فى أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية بمئات الملايين حتى أصبح عددها حوالى ٧٠ مليونا .. وسبب ذلك أنه لم تكن هناك أسواق للبيض .

والانسان حريص على هذه الحيوانات والطيور لأنها مصدر غذائه .. ولو وجد الانسان موردا آخر للبروتين ، ما تردد لحظة واحدة فى ابادة هذه الطيور والحيوانات معا . فمكان بقاء هذه الحيوانات سببه أن علوم الكيمياء لم تتطور بدرجة كافية .. وعلماء الكيمياء فى العالم هم الذين سيقررون ان كانت هذه الحيوانات

www.alkottob.com

ستعيش أو تنقرض . ولن يمضى وقت طويل حتى تتحول هـذه الحيوانات الكثيرة الى حيوانات نادرة أو حيوانات للزينة !

* * *

ومن المؤكد أن الانسان قد قتل الملايين من هذهالحيوانات والطيور عندما اخترع السهام والنبال .. واضعاف هذه الكائنات قد قضى عليها الانسان عندما اكتشف البارود..وفى أمريكا ، وبسبب الزحف الى الغرب ، أحرق المهاجرون الجدد الغابات والمراعى فماتت ملايين الحيوانات وانعدمت تماما .. فالجاموس الوحشى أثناء الحرب الاهلية الامريكية كان عدده يبلغ ستين مليونا أى ضعف عدد سكان أمريكا فى ذلك الوقت . فأين هذه الجواميس الآن ؟ انها فى حدائق الحيوانات فقط ؟ .. وهناك نداءات كثيرة من جمعيات انسانية تطلب الرحمة بهذا الحيوان . ولكن هذه الجمعيات نفسها لا يتوقف اعضاؤها عن أكل اللحوم .. اذن هذه الجمعيات لا تطالب بالابقاء على الجواميس الا خوفا عليها من التلاشى .. ولو كانت هـذه الجواميس بالملايين ما طالب أحد بالحرص عليها !

وهناك حيوانات أخرى سوف تبقى شيئا قليلا . ولن يكون عددها بمئات الالوف أو الملايين . لأن الذى يحدد وجودها هـو احتياج الانسان الى الفرجة عليها .. مثل كل حيوانات حديقـة الحيوان : الأسود والنمور والضباع والذئاب.وهذا هو أحد اسباب اقبال الناس على حدائق الحيوانات . فالناس يذهبون لرؤية هذه الحيوانات فى الاقفاص لأنهم لن يروها فى أى مكان آخر .. ولذلك لا توجد حديقة حيوانات فى أواسط افريقيا قد حوت اقفاصا للقرود .. لأن الناس يجدون القرود على الأشجار وفى الشوارع !

وبعض الطيور قد طال عمرها لنفس السبب . أو لأسباب أخرى جمالية . فالببغاء وطيور الكنارى قد ابقى عليها الانسان لأنهـا

www.alkottob.com

جميلة الريش رشيقة الحركة أو لأن لها أصواتا جميلة . وكذلك عاش الطاووس .. ولا يذكر أحد فى كل العصـــور أن أحدا اكل الطاووس لأنه نادر الوجود وهو لذلك غالى الثمن . فقط فى ايران وأثناء مهرجان فورش والاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على انشائه للدولة الفارسية . فى هذا المهرجان قدمت ايران للملوك والرؤساء لحم الطاووس. .والطاووس اشترته ايران وبعثتبه الى مطعم ماكسيم الشهير فى باريس وحملته الطائرات ساخنا من باريس الى مدينة برسبوليس فى خيمات الملوك والرؤساء ـــ ولوقدموا الى الطاووس فى سندوتش ما أكلته . لكن فى هذا الجو الخيـــالى ومع الألوان والموسيقى والاكواب من ذهب ، وعلى مسمع ومرأى من كل رؤوس العالم ، فلابد أن يكون طعمه لذيذا وأن يكون له مثل السحر فى الجسم والنفس .. ومن المؤكد أن هذا هو آخر عهد الانسان بالطاووس محشوا بالفستق والصنوبر وأبى فروة !

* * *

أما بقية الطيور النافعة للانسان أى التى تأكل الديدان الضارة والحشرات فى الحقول ، فانها أخذت فى الانقراض . سبب ذلك : الهواء الفاسد فى المدن والمبيدات الحشرية فى الحدائق والحقول. ان هذه الطيور رغم حرص الانســان عليها ، لأسباب مصلحية أو انسانية أو جمالية ، فانها سوف تنقرض . لمـــاذا ؟ لأن الانسان اما أن يعيش أو تعيش هذه الطيور . طبعا لابد أن يعيش الانسان ـــ كما عاش دائما ـــ على جثث غيره من الطيور والحيوانات والانسان أيضـــا !

فقط كل الكائنات التى تعيش فى أعماق البحار تدعاشت لأنها بعيدة عن متناول الانسان . ولكن هذه الكائنات لن تظل وقتا طويلا بعيدة عن الانسان . فاذا اقترب منها ، كان الموت قريبا أيضا . وسوف يجىء دورها طبعا .

www.alkottob.com

اذا كان الانسان حريصا على الحيوان لانه مصدر غذائه وكسائه ووسيلته فى الانتقال ، فان هناك حيوانات رغم ذلك قد ماتت . الخيول مثلا : كانت وسيلة الانتقال للانسان . وكان الحصان احدى أدوات الحرب . وقد حاول الانسان فى الحرب العالمية الاولى أن يدفع بالحصان لخوض غمـــار معارك الفرسان وكانت معـــارك انتحارية . وفى الحرب العالمية الثانية ابتعدوا به تماما .. وفى الحروب القادمة ، لن يكون للحصان وجود . والحصان الآن لم يعد اداة النقل والمواصلات فى العالم . ولذلك فلن يعيش طويلا الا فى السيرك والا فى اصطبلات سباق الخيول . أى أن الحصان سوف يبقى لأسباب رياضية وجمالية ..

وفى القرن الماضى انشأت كل من بريطانيا وأمريكا اصطبلات للتقاعد . فالحصان الذى تقدمت به السن ، وجاء الارهاق فخلع أوصاله ، لابد أن يستريح فى حظيرة حتى الموت مثل كل الناس ! ولكن لن يتسع وقت الانسان لمثل هذه الرفة . فسوف تموت الخيول فى الحقول وفى السيرك وبعد ذلك يكون لها قفص فى حدائق الحيوانات الى جوار الحيوانات النادرة !

حتى الأغنام .. سوف يجىء دورها فاذا استطاع الانسان أن يحصل على صوف جيد دون حاجة الى الأغنام فهذه نهايتها ، لأن الانسان قد اخترع الخيوط الصناعية . واستطاع أن يضع خيوط الصوف الصـــناعية فى المواد الكيماوية لتعيش أطول وانعم واكثر ليونة . بل ان بعض الخيوط الصوفية الطبيعية عندما وضعت فى المواد الكيماوية نمت . ومعنى ذلك انه يمكن تنمية الخيوط الحيوانية دون حاجة الى الحيوان نفسه . ولكن الخيوط الصناعية ما تزال اقل جودة من الخيوط الطبيعية . ولكن مع تقدم الكيمياء سيصل الانسان الى خيوط اقوى واجود واكثر نعومة ولمعانا . فاذا وصل

www.alkottob.com

الى ذلك ، انتهت مهمة الأغنام التى عاشت للانسان وعايشته ومانت من اجله عشرات الألوف من السنين . واتخذت مكانها المتواضع فى متاحف التاريخ الطبيعى أو ارسلت من ينوب عنها فى حدائق الحيوان الى جانب الزرافة والغزالة والقرد !

ولا تزال هناك مشكلة امام الانسان هى التى ستجعل الاغنام والأبقار والطيور اطول عمرا : وهى ان الانسان لم يجد حتى الان مصدرا بديلا للبروتين الذى يجده فى اللحوم . ولذلك سوف تبقى هذه الكائنات مصدرا وحيدا للحم . وهناك نظرية تقول :

ان الانسان اصبح اقل ميلا لتناول اللحوم من اى وقت مضى .. صحيح ان الانسان كلما اصبح متمدرا اشترى لحما اكثر . ولكن هذه النظرية معناها : ان الجياع اقل تناولا للحم . ولما كان عدد الجياع اكثر من عدد القادرين ويزدادون بمرور الوقت فان عدد الذين يأكلون اللحوم سوف يكون اقل . أو لن يزيد عددهم مما يجعل عددا اكبر من الاغنام والابقار والطيور ينعم بالحياة . ولابد ان يدخل فى حسابنا ايضا اكثر من الف مليون نسمة لا يأكلون اللحوم فى الصين والهند .

واذا نظرنا الى ما اكله اهل باريس مثلا فى ١٨٨٩ نجد أن الفرد كان يستهلك ١٥٤ رطلا فى السنة . وبعد ثلاثين سنة نجد أن الفرد اصبح يستهلك ١١٠ ارطال .. بينما يتضاعف ما يستهلكه الفرد من النبيذ فى نفس المدة !

وفى امريكا كان الفرد يستهلك فى سنة ١٩٠٠ ما يعادل ١٥٠ رطلا فى السنة . ولكن فى سنة ١٩٣٨ هبط ما يستهلكه الى ١٢٥ رطلا .

وفى الحروب يزداد استهلاك الفرد .. وبعد الحروب يهبط الاستهلاك .

www.alkottob.com

فهذا الاعراض من اكل اللحوم هو الذى يكسب الحياة لملايين الابقار والاغنام والطيور .

ولكن تقدم الكيمياء ونشوب الحروب هو الذى سيهلك هـذه الكائنات . فكل هذه الكائنات لها أعمار مربوطة فى أصابع الانسان، ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها .

* * *

ولكن يجب الا نتصور أن الانسان هو اقوى الكائنات : الجراثيم أقوى منه .. ثم أن الانسان عندما لم يطق أن يتحمل ضغط الجو فى البالون الذى أطلق فى أوروبا استطاعت بطة وديك أن يرتفعا دون أن يصابا بأذى من الهواء والضغط .. وعندما أطلق الانسان قنبلته الذرية على جزر بيكينى : عاشت الخنافس والخنازير والماعز . واخترقتها الاشعة ولم تمت .. ثم عاد التراب الذرى فغطى هذه الحيوانات ولم تمت فى حينها ولا بعد ذلك بسنوات .. ولم يكن فى قدرة صانع القنبلة الذرية أن يواجه الشعاع والتراب .

من يدرى ربما انقرض الانسان وجاءت كائنات أخرى من كواكب أخرى تتفرج على هذه الحظيرة الكبرى التى اسمها : الكرة الارضية .. تماما كما تذهب تتفرج الآن على ما أحدثه بركان فيزوف بالقرب من نابلى عندما تجمد الشعب كله وتحولوا الى تماثيل حجرية .

من يدرى ربما فعلت كائنات اخرى أكثر عقلا ووضعتنا فى حدائق للحيوانات الاقل وراحت تتفرج علينا كما نتفرج الآن فى متاحف التاريخ الطبيعى على الجماجم والاعمدة الفقرية للانسان الاول — ربمـا !

www.alkottob.com

قرود في كل مكان !

وكنت افضل ان تكون الصفحات التالية في اول هذا الكتاب .. فهي تصف الحيوان وسلوكه دون تحفظ .. اي دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى ان يفعله الانسان . ولكن الحضارة تجيء وتقيد الانسان وتضع الفرامل والضوابط والقواعد والحلال والحرام واللائق وغير اللائق على كل مشاعره الحيوانية والانسانية ..

ولكن بعد ان عرفنا جوانب من حياة الانسان يمكننا ان نعرفها اعمق واوضح اذا عدنا عشرات الالوف من السنين .. او اذا ذهبت الى حديقة الحيوان .. ففي الحديقة تجد الانسان متخفيا وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان اكثر صراحة ..

لان الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

www.alkottob.com

ولذلك فهذه الحيوانات هى دليلنـــا الذى لا يخطىء الى فهم الانسان مرة اخرى ..

فان كان قد فاتك أن تفهم الانســـان من مئـــات الصـــفحات السابقة ، فهذه هى فرصتك فى ان تستدرك ما فات وان تفهم غيرك ونفسك ..

فاذا شعرت بالخجل فلان الحيوانات لا تخفى ما تشعر به هى .. وما تشعر به انت !

* * *

واذا ذهبت الى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك ويقول : ياحيوان فلا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث .. فكل ما فى الحـــديقة حيوانات : التى فى الاقفـــاص .. والذين خارجهـــا .

واذا وقفت امام قفص القـــرود ورايت القـــردة تقلى ابنتها الصغيرة فلا تضحك .. فلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف.أما فى المدينة كالكوافير يقوم بهذا العمل ايضا مستخدما أحدث ما وصل اليه عقل الانسان .

واذا انت القيت ببعض الســـودانى وتزاحمت عليه القـــرود وضحك طفلك الصغير ، فاظن انه لا داعى لأن تضحك انت . لانك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب او الدكان أو المصنع الذى تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص اقسى من قفص القـــرود . وانت محكوم فيداخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف.. واذا اشار رئيسك فى العمل بالعلاوات او الارباح فانك تقفز مثل

www.alkottob.com

هذا القرد واكثر .. وليست العلاوات الا انواعا من الفول السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القرود ..

واذا رايت القرد — امام كل الناس — يركب ظهر الانثى . فليس القرد قليل الادب ، ولا نفسه انفتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه فى حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والانسان ايضا . والناس فى جو الخوف يتعسالقون .. انهم يواجهون الموت بالقبلات ، ويواجهون الموت بغريزة حب البقاء .. والبقاء عن طريق الجنس ..

واذا كان القرد ليس له مستقبل فى ان يكون انسانا . فمن المؤكد ان الانسان له ماض . وهذا الماضى مانزال حروفه الغامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القرود .. فاذا لم يكن هذا القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . واذا كان الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الالوف من السنين .. فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال مصونة مكنونة فى اقفاص القرود ..

ولهذه الاسباب كان الكتاب الممتع الصعب ايضا الذى كتبه العالم دزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من اروع الكتب التى صدرت اخيرا فى العالم بلغات متعددة .

واذا كان هذا الكتاب لم يلق التاييد الكامل من علماء الحياة والدراسات الانسانية والحيوان ، فانهم — عادة — لا يتفقون على راى واحد .. ولكنهم امام هذا الكتاب اتفقوا على انه خلاصة دراسات وتاملات عميقة ومثيرة ايضا . وان به نظريات جريئة وجديدة ولابد ان تدير آلافا من الادمغة يمينا وشمالا .. وبعد ذلك فى امكانها ان تتساقط من التعب او اليأس .

www.alkottob.com

هناك ١٩٣ نوعا من القـــرود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد المريان له صـــفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا من معنى سلوكه وتصرفاته .. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد المريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة أنه عاقل حقيقة ، ولكنه أكثر الحيوانـــات شراهة من النـــاحية الجنسية . فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس ، ولذلك فالذكر عند العناق لا يواجه الأنثى ..

والحيوانات لها مواسم . والانسان ليست له مواسم للقبلات والحمل والرضـــاعة والولادة .. فكل وقت عنده هـــو الوقت المناسب لأن يكون « حيوانا » ومن الضرورى أن نعيد النظـــر فى الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيـــوانات الراقية مثل القرود لنعرف كيف عاش هذا الانسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى نراها اليوم .. ولا نفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر أنه فى احدى حدائق الحيوانات يوجد « سنجاب » وهو حيوان صغير أليف يظهـــر فى الحدائق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضعوه فى قفص على انفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب افريقى نادر . ولا نعرف اسمه العامى .. فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء .. وأنف أحمر ..

وأمام هذا السنجاب النادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـــ ٣٦٦ نوعا من السناجيب التى عاشت

www.alkottob.com

فى العالم كله . ولابد ان هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما واصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولابد انها مرت بظروف غريبة . وانها توافقت مع هذه الظروف . واصبحت لها الوان واشكال وعادات مختلفة عن بقية الانواع الاخرى ..

نفس الموقف يجب ان نأخذه من الانسان — هذا الفرد العريان — نتساءل كيف عاش . ولماذا بقى . وكيف تطور .. وكيف تحول من مرحلة اكل فيها الحشرات الى مرحلة اكل فيها أوراق الشجر . ثم الثمار .. ثم انتقل من الغابات الى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التقاط الثمار الى صيد الوحوش .. ثم الى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجليه .. واستخدم يديه فى صناعة أدوات حياته ..

وان كان الانسان مثل بقية الحيوانات الثديية التى يبلغ عدد انواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة فى الحر والبرد .. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية — اى التى لها اثداء ترضع بها أطفالها — تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف فى حفظ درجة الحرارة فى الشتاء . والوقاية من حرارة الشمس فى الصيف .. والوطواط وهو طائر ثديى عريان فى معظم اماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدرافيل .. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الانسان ..

والانسان فى تاريخه الطويل فقد القدرة على الابصار . وفقد قوة السمع والشم . اما الحيوانات الاخرى وخصوصا آكلة اللحوم مثل الانسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع

www.alkottob.com

والشم . ففى سنة ١٩٥٣ اجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على الشم ، فاثبت العلماء أن قدرتها اقوى من الانسان مليون ونصف مليون مرة ..

والانسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل ايضا . وبعض الحيوانات لا تقتل لمجرد القتل . وانما لاسباب وجيهة : الجوع.. او جوع صغارها ..

وحتى الحيوانات التى استؤنست ما تزال عندها غريزةالصيد .. والانسان ايضا . فالكلب الاليف يحب أن يخرج به سيده الى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهى لعبة لانها ليست خطرة . وكذلك القط الذى تلقى اليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير .

وبعض الكلاب تخفى طعامها .

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة فى الصيد .. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب .. واذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود . والذئاب تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فانها تمشى فى طابور طويل . وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت.

هناك خلاف هام بين هذا الانسان وبين القرود الاخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الانسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفى نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره .

www.alkottob.com

ويبلغ العقل نضجه التام فى الثالثة والعشرين أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة .

والانسان لم يستمتع بهذه الطفولة الا بعد عادات اخرىاكتسبها .. وهى ان الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال . لان المراة فى حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المراة فى البيت مع اطفالها . والمراة فى البيت بلا خوف من هجمات الذكور الاخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والانثى ، أن تبقى هذه الانثى له وحده . وان تبقى وفية مخلصة له اذا ذهب للصيد فى الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والانثى الا بعد ان كان هناك حب بينهما . وهذا الحب ادى الى الارتباط والارتباط ادى الى قيام وحدة من رجل وامراة وانشاء اسرة اى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الاب والام والاطفال .. واذا كان منطبيعة الحيوانات الاخرى ان تتعاون فالانسان ايضا حيوان متعاونولكنه حيوان منافس ايضا . وكثيرا ما ادى به التنافس الى القضاء على الاسرة وعشرات الاسر .. واذا كانت رغبة الانسان فى التعاون هى التى جعلته يخلق الاسرة ، فان رغبته فى التنافس هى التى جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الارض ويقتل القبائل الاخرى .. واكثر من ذلك جعلته يبتكر ادوات جديدة فى الدفاع عن النفسوفى القتال .. وجعلته يشعل النار فى عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الاجيال القادمة .. تاريخ الانسان اضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الانسان لاخيه الانسان ..

أما لماذا سمى الانسان بالقرد العريان فهناك آراء كثيرة . هناك راى يقول ان طفل القرد عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما .. ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والانسان لان طفولته

www.alkottob.com

طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم أصبحت هـذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين ..

ومن المعروف أن الجنين فى الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك فى الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان .. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن .. وأن كانت هناك حالات نادرة معروفة فى الكتب العلمية لأطفـال ظل شعرهم طويلا يغطى معظم الجسم .. كالقرود تماما ..

ويقال أيضا أن الحيوانات التى يتغطى جسمها بالشـعر . تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الانسان يعيش فى الكهوف .. ويقال لأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينتزع شعره ويحلقه .. ولأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول ان الانسان عندما اخترع النار لم يعد فى حاجة الى أغطية من الشعر .. أو فروة من الشعر .. وانه قادر على أن يجد الدفء فى ضوء الشمس نهارا . وان يجد الدفء أمام النار ليلا .. وأن هـذا الدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطى جسمه كله.

ويقال أن الانسان قـد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وانه كان يعيش على أكل السمك . وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبقى الا رأسه على سطح الماء .. ولذلك ـ مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى ـ أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد فى تفسير خلو جسم الانسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الاخرى..

وربما كان لـ شعر تفسير جنسى آخر .. فمن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الاناث ولذلك أصـبحت

www.alkottob.com

الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون أنعم أيضا . بينما يحرص الرجل على أن يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربه ولحيته .. ويترك الشعر فى صدره وتحت إبطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الانسان يحب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة . ولا معنى ذلك أن المرأة أحبت الشعر فى جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه أن الانسان أحب الواقع .

نعود مرة أخرى الى قفص القرود الذى نقف أمامه فى حديقة الحيوان .. ان القردة لم تذهب الى حلاق ولا الى صانع أحذية والى معهم أزياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسوتيان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان أن يكون شهوانيا .. وأن يكون مشتعلا جنسيا . وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود اليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له اسرة وأولاده .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى قفص محكم معقد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التاريخ الذى طواه ملايين السنين تطلعتها القرود على الأشجار وتحتها وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ساقاها .. وقاومت فتحركت يداها واهتز عقلها أيضا..وسكنت الكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

www.alkottob.com

واصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القرود وان كان هو يتوهم انه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الاقنعة لغيره .. ولنفسه .. ويجعل اقفاصه هو مكيفة الهواء اذا كانت على الارض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط اذا كانت فى طريقها الى القمر .

والانسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والفاس والسيف . وما يزال يقتل . فقد اصبحت لهذه الاسلحة اسماء جديدة : الصاروخ والطائرة والدبابة . فهو — اذن — لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته فى القتل . وانما هذه الرغبة هى التى طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالاسود والاحمر طريقها واهدافها .. والانسان — هذا القرد العريان — كان صيادا فى الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود وتوت الشفاه .

فالحضارة الانسانية لم تضع الغرائز على رغبات الانسان . وانما رغبات الانسان هى التى اشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الانسانية . فلا يزال الانسان اكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية : يجوع اليها ، وينشدها ويجدها ويطاردها ويعود اليها . ويبدأ الانسان هذا الشوق الجنسى فى سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسى . والمداعبة . والمطاردة . والصيد . والانتباه الجنسى والهياج الجنسى .. والاشباع ..

والانسان حيوان شهوانى اكثر من الحيوانات الاخرى ..

www.alkottob.com

ولكن الانسان هو أول حيوان يحرص على ان تكون له اسرة. اى تكون له امراة واحدة . يحرص عليهـــا ومن الضرورى ان تحرص هى أيضا عليه . والانسان كحيوان صياد كان يخرج من الكهف الى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة . ويترك وراءه انثاه واولاده . وهى بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين. ولابد من حماية لها اثناء غيابه .

ولذلك عرف الانسان الحب . وعرف العطف على الانثى . وعرفت الانثى حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للانسان . لانه عقد غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى ان يحتفظ بهذه الانثى . ويصبح لهذه الانثى الحق فى ان تعيش فى كهف هذا الرجل ولهذا الرجل والا تسلم نفسها لذكور آخرين ..

ولكى يبقى هذا « العقد » محترما صار على الذكر ان يحترم عقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدا فيه جسم الانسان يضعف بدا عقله ينمو وينضج . ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة الى عضـــلات الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وانما عقله هداه الى اساليب اخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهداه ايضا لاستخدام اسلحة اخرى للقتال والدفاع عن النفس .. وهداه الى وضـــع حدود اجتماعية لتحميه وتحمى ذريته . وفى اثناء فترة الصـــيد هذه استطاع الانسان ان يحرك اصابع يديه . وهو وحده القادر على ذلك من كل الحيوانات الاخرى . وهذه الأصابع هى التى مكنت الانسان من ان يستخدم الادوات وان يصنعها ايضـــا . وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الاخرى ..

www.alkottob.com

وتمكن الانسان ـــ خلال مئات الالوف من السنين ـــ ان يصلب عوده . وان يقف وتعلم الانسان ان يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هى الشريكة . او هى اللصيقة . او التـــابعة .. فلم تظهر كلمة الزواج او كلمة الزوج الا فيمـــا بعـــد ذلك بالوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الانسان والقرد مثلا ..

ففى فترة الحمل عند القرود ـــ اقرب الحيوانات الينا ـــ تقرف الانثى من كل صلة جنسية . بل انها تبعـــد تماما عن الذكور . فيما عدا الانسان ـــ هذا الشـــهوانى ـــ لا يقوى على الحرمان الجنسى طويلا . ولذلك فمن الممكن ان يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكانه بذلك اراد الا تتجـــه زوجته الى ذكر آخر .. وكأن الانثى أرادت هى الاخرى الا يتجه الذكر الى انثى اخرى.فاصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الانسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة فى البشرة .. فهو اذا عانق المرأة التصقت باكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . واصـــبح الجسم الانسانى شـــديد الحساسية للملامســـة . وفى هذا الجسم الانسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس . والانسان اكتشفها وامتاد عليهـــا ويلهبها كلما اراد ذلك .. ولذلك فى استطاعة الانسان ان يكهرب نفســه وغيره بمجرد أن يمر باصـــابعه على الجسم الانســـانى العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الانسان : الشفتان ..

وقد اعلن كثير من العلمـــاء ان الشفتين ليست لهمـــا ضرورة

www.alkottob.com

خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الانسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا .. ويقول علماء آخرون : ان شفتى الانسان قد كبرتا وتضخمتا لأن الانسان له طفولة طويلة . أى أنه يرضع لدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب فى شكل الشفتين أنهما مقلوبتان الى الخارج . على خلاف شفتى القرد .. فانهما حادتان بلا طبقة شحمية . فاذا اقترب منك القرد وقبلك فانه يطبع فكيه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبلة من شفتى انسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا . ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين بالشفتين ..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين ذراعين تتعانقان .. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسى الى كل الجسم بل أن هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . وبسبب المعانى الكثيرة التى تحملها القبلة وتثيرها ، فان تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى .. وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه ، فان الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة .

وبعد الشفتين تجىء الأذنان ..

يقول بعض العلماء ان أذنى الانسان كانتا طويلتين — كأذني الحمار مثلا ثم ضمرت الأذنان بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه .. وهناك شبه بين أذنى الانسان وأذنى القرد .

www.alkottob.com

ولكن هنـــاك خلافا واضحا : هذه الشـــحمة التى تتدلى من الاذن .. من اين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لهـــا فائدة . ولكن الانسان خلال مئات الالوف من السنين قد استخدم هاتين الاذنين فى الاثارة الجنسية .. امسك الاذنين باصـــابعه اثناء اللقاء الجنسى . واعتاد ذلك واصبحت لهذه الشـــحمة هذه الدلالة الجنسية . واصبحت جرسا يضغط عليه فاذا كل الحواس الاخرى تصرخ وتثور وتنفتح ..

اما النهدان فهمـــا عند انثى القـــرد العريان متضخمـــان .. وتتضخمان عند الاثارة الجنسية ايضا .

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الامومة . وضرورة لها . ولكن اثداء القرود ليست فى ضخامة اثداء المراة . على الرغم من ان اثداء القرود اكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عنـــد صغار القرود لم تؤد الى تضخم لدييى القـــردة ، ولكن انثى الانسان لها نهدان يتضخمان وهذا التضخم ليس بسبب الامومة ، ولكن بسبب الاثارة .. فالنهدان جهـــاز تنبيه جنسى ايضـــا . اعتاده الانسان واستراح اليه وعليه .

والانف يختلف من كل الانوف عند الحيوانات الاخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة فى الانف كثيرة . واذا كانت خاصـــة الشم عند الانسان قد ضعفت فان هذه الحســـاسية تقوى عند العناق . ويصـــبح الانف قادر على أن يشم وعلى الاســـتمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طريق العطور ورائحة الجســـم الانسانى نفسه .

هذه الاختلافات فى الهيئة والسلوك الانسانى قد اكتسبناها من مئات الالوف من السنين .. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل

www.alkottob.com

الذى نمتاز به من الحيوانات الاخرى ولكن ما الذى تغير فى الانسان الآن .. هل ما يزال الانسان كما كان من مئات الالوف من السنين .. هل نحن مختلفون من اجدادنا فى الرغبة والاتجاه والاشباع ..

لم يتغير شيء .. وانما الاسماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزاوج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد.. الاصول .. التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هذه الفواصل . هذه الاسلاك الشائكه . هذه العلامات البيضاء على الارض . علامات المرور العاطفية.متى ظهرت . متى اصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغرباء فى حياتنا ..

فبين الرجل والشاه لا قيود . ولا تقاليد . ولا عادات . الا ما اتفقنا عليه . وهو حر فى بيته . وهى ايضا . وفى استطاعة الانثى ان تمشى عارية . والرجل ايضا . ولكن عندما يظهرشخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المراة . ويبعد الرجل عن زوجته ..

واذا كان الرجال معا يذهبون الى الصيد ويتركون النساء وحدهن فقد حدث كثيرا ان ذهبت النساء للصيد ايضا . هذا الاختلاط حتم اقامة الفوارق والحدود . وعرفت الانسانية معانى العيب والحرام والشرف . اى ان المراة لا يحق لها ان تعطى للغير ما ليس للغير .

www.alkottob.com

وقد أسرف الرجال فى وضع الحواجز واقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفى العصور الوسطى كان الرجل يضع « حزام العفة » حول زوجته . ويضع على الحزام قفلا يحتفظ بالمفتاح فى جيبه .. عاما .. وعشرين عاما . ويترك فى الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتزمتين يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يوم !

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة . وأن يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص ينامان فيه . (وفى كل اللغات العالمية نجد أن كلمة « نام » الرجل مع المرأة أى عاشرها كأنها زوجته) .. اذن لقد عرف الانسان الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية فى كل تصرفاته الجنسية والعاطفية .. بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا .

* * *

ولو نظرنا الى مكان مزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك حرصا شديدا على ألا يصدم أحد بأحد .. أو يصطدم رجل بامرأة. لأن الملامسة لها معنى جنسى . وان كنا فى حياتنا العادية لا نقول ذلك . وانما فقط نقول : عيب أن نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق .. هذا سوء تربية .. ولكن المعنى الحقيقى أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وانما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه .. وانما من حق غيرك ، وان كانت هذه الملامسة مسموحا بها فى أماكن الزحام الشديد ، لانه لا مفر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب .. ولو فرضنا أن سيدة

www.alkottob.com

اصطدمت برجل فى الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت انه قليل الادب .. ولكن لو ذهبت الى الطبيب نفسه للعلاج فانها تنزع ملابسها امامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمه احد بسوء الادب لانه فى المرة الاولى لم يكن له حق . و فى المرة الثانية له هذا الحق !

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء فى كل مكان . كان من الضرورى أن تخفى المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس الوف السنين . ولكن عندما اصبح « العمل » ضرورة حيوية .. خرجت المرأة واخفت ملامحها ايضا لان كشف هذه المعالم والنظر اليها ولمسها بالعين او باليد ليس من حق كل الناس !

ولذلك نحن نطلب الى الطفلة الصغيرة اذا جلست ان تضم ساقيها . والا تفتحهما حتى تعتاد على ذلك .. لان فتح الساقين لا يليق امام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك فانها تحاول الا يكون صوتها عاليا . وان تخفى ضحكتها وراء يدها .. او تنحنى لتخفى ضحكتها ايضا .

والسبب هو ان الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة ، ويجب الا تكون عامة !

ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

ان ملابس المرأة تخفى جسمها ولا تخفيه .. بل ان الملابس تبرز جسم المرأة اكثر مما تستتر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا . ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه . وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف ان النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسى .

www.alkottob.com

وكذلك ارداف المراة . فهى حريصة ايضا على ابراز الردفين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. واحيانا تستخدم الارداف الصناعية المصنوعة من القطن . وكما ان المراة تحقن صدرها بالشمع . فانها تحقن ارداهها ايضا .

فكأن المراة لا تخفى جسمها . وانما هى تخفيه ليظهر اكثر . فلماذا ؟

نعود الى جبلاية القرود : ففى عالم القرود نجد ان الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفه الى الاستسلام للذكر القوى او الانثى القوية . واول ما يفعله الفرد الضعيف ان يدير ظهره للحيوان الاقوى . ويعتليه الحيوان الاقوى والخوف فى جبلاية القرود سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الاناث . ولا يملك الضعيف فى هذا الزحام الوحشى الا ان يعطى نفسه لمن هو اقوى منه . وليس لدى القرود الا جسمها .. فتضعه امام الذكر الاقوى !

وفى عالم الانسان ايضا . فالمراة عندما تخرج الى الشارع . تحرص على ان تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفى نفس الوقت تذويب رغباته العدائية او العدوانية .. الى مجرد رغبة .. الى اعجاب .. الى اشتهاء .. وبذلك تنجو المراة من شر الرجل . وتنجو ايضا من الاعتداء عليها .. ولولا خروج النساء الى الشارع لانهدمت الحياة الزوجية وانهدمت الاسرة الانسانية . فخروج المراة الى الشارع خفف حدة الرجال الاخرين الشبان والمتزوجين .. فكان المراة عندما تخرج الى الشارع جميلة انيقة مثيرة مارية بارزة النهدين والردفين تقول : من الممكن ان تحبنى ولكنى بعيدة جدا !

www.alkottob.com

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج الى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل .. اى رجل .. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا ان تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق اشباع العيون تقطع أيديهم .. واذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد ان الأيدى ستكون قصيرة — وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه الممنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة فى نفس الوقت ، لماذا تفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المدفأة فى نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فاذا سال لعابه ، أصبح حيوانا ذاول ذليلا .. وكأن المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر الى قط وتحويل الذئب الى كلب .. الى قرد عريان .. الى عريان .. فكأن المرأة هى وحدها التى تقوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت .. وهى وحدها القادرة على أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا !

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد ان ينظر .. أن « يبص » وأن يجد متعة فى النظر والبصيصة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة .. ملفتة .. وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة ايضا فى مشاهدة الافلام والمسرحيات حيث نجد اناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. انهم يقومون بكل شىء بالنيابة عنا .. اننا نشاركهم فقط بعض اللحظات . بل اننا نعلن عن الافلام العاطفية باظهار البطل والبطلة

www.alkottob.com

فى حالة هناق حار . ولا أحد يسأل نفسه : طيب هو يعانقها ويقتلها واحنا اخذنا ايه ؟ ..

لا شىء طبعا . ولكن اثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة وننسى ان الذى امامنا هو تمثيل فى تمثيل .. ولكن النظر متعة .. ولذلك عندما يتعانق البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب .. و نعالى آهات الحرمان .. آهات صاحب العين البصيرة واليد القصيرة !

وفى الصحف والمجلات صور عارية .. وفى الروايات قصص عارية .. وصفحات غرامية من نار .. كل هذا نبحث عنه . لانه لذة . ومتعة . ومشاركة بالعين فقط .. !

وفى هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل انسان اسرة أيضا !

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدعارة .. نجد أن هذه الدعارة تحمى الأسرة أيضا . فالرجل يذهب الى احدى الغانيات بلا حب ولا مقدمات فتمتد يده دون أن يراها .. أى يكون طويل اليد قصير النظر .. ولذلك لا يفكر فى أن يتزوج غانية .. أو يترك زوجته وأولاده وبيته من أجل غانية .. أو من أجل واحدة تملأ الذراعين وتسقط من العينين .

والدعارة هذا المعنى الاجتماعى والأخلاقى — هو أحد السموم التى يحمون بها الأسرة — أو كأنه أحد الأسمدة العضوية التى يستخدمونها لتغذية التربة ! .

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية . أو التخفيف منها تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية . فقد

www.alkottob.com

حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل للحمل بدون أب معروف .. وحاولوا وضع الأطفال فى مكان عالم دون حاجة الى أم أو أب .. **كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرأ الانسان عنها ولكن لم يتحمس لها . فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة الواحدة والطفل والبيت الخاص . وأن تكون له خصوصيات . وأن تكون هناك ، حدود عليه وحدود له .. وأن يكون له اطفال . وأن يتولى هو تربية اطفاله وهذه هى احدى مشكلات الأسرة واحد اعباء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست مشكلة حيوانية .. فلا شكوى للقرود منها .. وانما هى مشكلة انسانية جديدة ومتطورة كما سنرى !**

www.alkottob.com

من قلوب الأمهات !
خرجت موسيقى الخناض !

عندما يولد القرد، فانه يمسك بامه . يمسك بشعرها وجلدها . ويتعلق بها . كانه تدرب على هذه العملية فى بطن امه ومنذ وقت طويل .. ولا يستطيع الطفل الانسانى ان يفعل ذلك الا بعد وقت طويه .

فالقرد الصغير لا يحتاج من امه الى تربية او تدريب .. ثم انه ليس عبئا يصيبها بالقرف والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها .. وينفخ صدرها .. ويعتمد عليها ..

اما الطفل الانسانى فانه عبء قبل ان يولد فلا تكاد امه تحمل فيه حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كانه قذيفة .. ولا بد ان تصرح الام باعلى صوتها . ولا بد ان يبكى الطفل ايضا . ويحرص الأطباء على أن تصوت الام وعلى ان يبكى الطفل . فاذا حدث ذلك تلقت الطبيب يتلقى التهانى من الاهل على انه ابكى الام وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد بقطعه ثم ابتلاعه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذى يغرق جسم

www.alkottob.com

الطفل ثم تغسل جسمه تماما .. أما الطفل الانسانى فانه يولد عاجزا تماما على فعل اى شىء .. وأمه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود ..

ولا بد ان تطلع الخلاص على طريقة القرود كان اسلوب اجدادنا من الوف السنين ، فيما عدا انهم لا يأكلون الخلاص . ولا بد أن حاجة الأم الى مساعدة الآخرين فى هذا الموقف ترجع الى مئات الالوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته أياما حتى يعود اليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدنها على ولادة الطفل والعناية به حتى تفيق الأم من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانسانى يبدأ لبن الأم فى السيولة النشطة . فاذا أعطت الأم ثديها لابنها ، ظل يرضع حوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكتفى بسبعة أو تسعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح قادرة على الحمل من جديد .. ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القرود ليست مشكلة .. ولكنها عند الانسان ـــ هذا القرد العريان ـــ مشكلة كبرى . فالطفل الانسانى غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تساعده فهى تحمله على صدرها . وهى تضع ثديها فى فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدى ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السهل ادخالها فى فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفتيه بحيث تكون حلمة الثدى بين سقف الفم وبين لسانه . ثم انه يجب أن تكون الرضاعة سهلة فى الأيام الخمسة الأولى ، واذا فشلت الأم فى ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك ..

www.alkottob.com

وأحيانا تشعر الأم ان طفلها يرفض ثديها . وهى لا تدرى . ولكن عند الطفل اسباب وجيهة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يتنفس : فمه الصغير مليان بالبن وأنفه الصغير ملتصق بصدرها .. ولذلك يجب أن تراعى الأم ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى ان صدر الأم — نهديها — ليس جهازا للأمومة . وانما هو علامة من علامات الأنوثة .. والجنس . فهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى أن ننظر الى زجاجات اللبن التى يرضع منها الطفل . فحلمة الزجاجة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجة لرفض ثدى الأم .. وتشبه هذه الزجاجة النموذجية ثدى القردة .. فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل أن يمسكه . كما أن حلمة الثدى طويلة ممدوده تدخل بين شفتيه بسهولة تامة . بينما الطفل الانسانى يجد صعوبة فى وضع الحلمة فى فمه . ولا يقوى على امساك الثدى بسهولة القرود .. فكأن ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل .. !

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج الى تفسير جديد . فقد دلت الابحاث على ان ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصغار اثناء الرضاعة على الذراع اليسرى .. وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى أكثر من الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التى لا تستخدمها عادة .

ولكن لوحظ أيضا أن ٧٨٪ من الأمهات اللاتى يستخدمن الذراع اليسرى يضعن الطفل اثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى أيضا !!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب على الجانب الأيسر من الجسم .

www.alkottob.com

وان الطفل وهو جنين قد اعتـــاد على سماع دقات قلب الام . وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا فى هذا العالم الكبير فان الام تعيده الى جنبها الى حضنها كأنها تعيده الى احشائها فى ذلك المكان الأمين الذى يستمع فيه الى دقات قلبها من جديد .. ودقات قلب الام هى الصـــوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن فينام . والمراة تفعل ذلك بالغريزة او نتيجة لمحاولات طولها عشرات الالوف من السنين .

وقد اجريت تجارب على اطفال صغار وضعوا فى غرفة واحدة فى الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب ـــ اى ٧٢ دقة فى الدقيقة ـــ فلوحظ ان الاطفال ينامون بسهولة . ولوحظ ايضا ان هؤلاء الاطفال يرضعون كثيرا . كما ان وزنهم قد زاد .. على عكس الاطفال الذين وضعوا معا بلا جهـــاز تسجيل فى غرفهم . فهؤلاء الاطفال يبددون طاقاتهم فى البكاء .

واجريت تجربة اخرى على ثلاث مجاميع من الاطفال : اطفال فى غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة فى الدقيقة .. واطفال فى غرفة بهـــا جهاز يدق ٥٢ دقة فى الدقيقة .. والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل عليه دقات قلب حقيقى .. فلوحظ ان اطفال الغرفة الثالثة هم اسرع الجميع الى الهدوء والى النوم .

ولا بد اننا حين نتحدث عن ان الحب مصـــدره القلب وليس الراس ، نشير الى أن هذه الحقيقة التى عرفناها اثناء الطفولة .. فنحن نشير الى الامن والامان الى جوار الام .

ولا بد ان تكون « مرجحة » الطفل .. وهدهدته حتى ينام .. مسببها ان الطفل يستشعر خفقات قلب الام .. ولا بد ان هذا هو الذى يجعله ينام .. وهذا الاهتزاز او هذا الصوت الذى يسمعه

www.alkottob.com

يعيده الى هدوئه عندما كان فى بطن أمه .. وهذا ما نفعله نحن الكبار .

فلا يكاد الانسان يجلس الى مقعده حتى يحاول ان يتأرجح به .. او عندما نهز ارجلنا .. كل هذه محاولات لأن نهدىء انفسنا .. او محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من المستغرب أن تكون كل الموسيقى الجديدة التى يستريح اليها الشبان هى موسيقى الدقات المالية .. دقات الطبول .. دقات القلوب المصنوعة من الجلد .. هذه الدقات تهز الاذن وتتأرجح لها المشاعر .. وقد اختار الشبان فى العالم اسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفقان .. موسيقى دقات القلب . ومن الغريب ايضا ان الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون .. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا اثناء العزف الموسيقى .. ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراحت اجسامهم واعصابهم ايضا .. ان هذه الموسيقى قد اعادتهم الى طفولتهم .. الى قلب الأم .. والى حنان النغم .. فناموا كأنهم اطفال صغار كأن موسيقى الخناس قد صدرت من قلوب الأمهات!

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه اذا نام على الارض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده الى الأشياء . وبعد أربعة يستطيع أن يجلس فى حجر أمه . وفى الخامس يمكن وضعه فى مقعد . وفى السادس يمكن أن يجلس وحده وفى السابع يعتمد على أمه فى الوقوف . وفى الثامن يعتمد على اثاث الغرفة فى الوقوف . وفى التاسع يزحف . وفى العاشر تساعده أمه على المشى . وفى الحادى عشر يعتمد على اثاث الغرفة فى المشى . وفى الثانى عشر يستطيع أن

www.alkottob.com

يصعد السلم بيديه ورجليه وفى الثالث عشر يقف دون مساعدة . وفى الرابع عشر تجىء اللحظة الكبرى .

انه يستطيع أن يمشى دون مساعدة ! وفى هذه الاثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفى السنة الثانيـــة يعرف ٣٠٠ كلمة وفى الثالثـــة ٥٠٠ كلمة وفى الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفى الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الانسان انفرد بها عن كل الحيوانات الاخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القرود على الكلام .

فمثلا : اتوا بقرد وجعلوه يعيش فى نفس بيئة طفل انسانى . وبعد سنتين لم يستطع القرد ان ينطق اكثر من بابا .. وماما .. كوب .. وان كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فانه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى اقوى من أجهزة الانسان .. ومعنى ذلك ان الجهاز الصوتى لا يكفى .

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد . وهناك طيور اقدر من الشمبانزى على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع ان ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع ان يضيف كلمات اخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنده .. ولكن هذه اللغة ضرورة عند الانسان الذى كان يجب أن يخرج فى جماعات للصـــيد . وكان لا بد أن توجد هنـــاك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصـادين .. فاللغة ضرورة حيـــوية عند الانسان ..

والطفل الانسانى ككل اطفـــال الحيوانات الثـــديية له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم . وبعض الطيور

www.alkottob.com

لها صرخات ايضا . والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو اذا ظهر أمامه أو حوله شيء غير مألوف أو اذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه .. فانه يصرخ .

فهو يصرخ اذن بسبب : التعب أو الخوف . واذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه . وفى هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفتين الى الخلف وتنفس مرتفع . وعندما يكبر الطفل فانه عندما يصرخ يتجه الى أمه ويتعلق بها . وكل هذه معلومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا .. مشـــكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء الى شخص بعيد .

والابتســـام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عنـــد الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفتين الى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

واذا استطاع الطفل أن يميز أبويه فى الشـــهر الثالث ، فان البكاء يتحول الى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل أمه فانه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . واذا عرف الطفل الضحك ، فان الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك اناس كثيرون اذا ضحكوا لا تعرف ان كانوا يضحكون أو يبكون .. فملامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . واذا كنا نقول عادة : ان فلانا ضحك حتى بكت عيناه ، فيمكن أن يقال

www.alkottob.com

من الطفل : انه بكى حتى ضحك .. فالطفل يبكى حتى يجىء احد . فاذا جاء توقف من البكاء . فاذا عرف هـذا الذى جـاء فانه يبتسم .. ثم يضحك .. وكثيرا ما يتوقف الطفل من البكاء فجأة ويضحك .. نفس الملامح مع خلاف بسيط فى لمعان العينين ..

وعنـدما يعرف الطفل كيف يضحك فانه يصبح لعبة الأبوين والاقارب .. ويدخل الطفل مرحلة هامة من حيـاته .. مرحلة الكائن الاجتماعى الصغير ..

والشـمبانزى يبتسـم ويضـحك ويلعب مع صـغاره .. والشمبانزى اذا ضحك فانه يمد شفتيه الى الامام . وهى قريبة من الضـحك الانسانى وعندما يخـاف الشمبانزى فانه يسحب شفتيه الى الخلف ويكشف عن أسـنانه . فالحيوانات تضحك وتلعب . والانسان ابرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب .. وكلما كبر الانسان اتسعت امامه فرص اللعب بانواعه المختلفة .. اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

واذا نحن نظرنا الى الشبان عنـدما يستمعون الى مطربهم المحبوب . او يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم . نجد أن هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم ويدقون صـدورهم ويمسك الواحد منهم الآخر .. انهم يصرخون كأنهم يتألمون مع انهم سعداء . ولكن الانفعال اذا ما كان بالغ الشدة فانه يتحول الى شعور بالألم .. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وانما صرخات بقصد تنبيه الآخرين الى أن هذا هو شعورهم واحساسهم .. وانهم فى شدة السعادة التى بلغت اقصى درجات الألم ..

ولو اتينا بشاب أو شابة واجلسناها مع المطرب الذى هو فتى احلامها فانها لا تصرخ ولا تشـد شعرها ولا تدق صـدرها .. فالصرخة ليس لها معنى هنا . لأن الصرخة نداء الى الآخرين ..

www.alkottob.com

لان الصرخة .. لغة .. عبارة .. كلام لا بد ان يسمعه انسان آخر .. او آخرون :

ومن العجيب ان الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ فى الشهر الثالث فجاة . وسبب ذلك ان الطفل يكون قد عرف أمه . والأم المسادلة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا ..

الأم التى تبتسم لطفلها فانها تهدئه . ولكن اذا فوجىء الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة ، فانه يرتبك ويضطرب ولا يعرف ما الذى تقصده أمه

واذا الأم افتعلت ضحكه او ابتسامة ، فان الطفل يدرك ذلك ايضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وانه اذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم . فاذا تغيرت لأى سبب فانه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !

والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لا خوف . وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الانسان بالابتسام

سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فانه يتعلق بأمه . ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لاول مرة ، فانه بسرعة يعود اليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول الى منطقة الأمان . حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فانه يعود الى صدرها يتعلق به .. والطفل الانسانى عندما يولد فانه يكون عاجزا عن عمل شىء . وليس لديه

www.alkottob.com

شيء يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لا بد أن يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشمبانزى لا يحتاج الى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالانسان الصغير محتاج الى علامة الى اشارة تدل على أنه فى حاجة الى معونة ومحتاج الى اشارة اخرى تقول انه قد تحققت له المعونة وانه استراح الى ذلك. .والابتسام هو المكافأة التى يمنحها الطفل لأمه .. فهو اذا ابتسم كأنه قال لها : شكرا .. واذا ابتسمت هى فكأنها قالت له : عفوا !

وابتسامة الطفل فى الأسابيع الأولى تكون غير مركزة .. انها ابتسامة عامة .. ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عينى الأم .. ولو قدمنا للطفل فى هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينان .. لابتسم لها ايضا .. وفى الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم .. وفى الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه .. وابتداء من هذا الشهر ينطبع فى نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته .. انه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص اليدين والرجلين . واحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو .. أو الشخص المخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا ، فان استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف .. ومهمة الأم هنا هى تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الانسانى يتعلم بالتقليد والتلقين .. وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى .

www.alkottob.com

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هى ثمرات لبذور غرست فى الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الانسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا اخلاقيا ، ليس فى الحقيقة الا ما ترسب فى نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة ايضا .. كما أنه من الصعب أن تغير التقاليد والعادات التى ترسبت فى طفولة المجتمع الانسانى . فاذا ظهرت افكار جديدة تهز القديم ، فان القديم ، يقاوم ويتحمس له الناس . لأن الجديد يريد أن يقتلهم من طفولتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجديد يسود مع بقاء القديم ايضا ..

وهناك مجموعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد .. هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعدت عن الرواسب القوية الاخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجمدت طفولتها على ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة ـ كالانسان السعيد ايضا ـ هى التى تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحتفظ من القديم بما ينفعها ايضا .. اى المجتمعات التى اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضى الكريم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة .. كيف تغرس فى نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن الذى يضره ويضر غيره ..

ولكن الانسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو ادى ذلك الى ضرره .. يريد أن يعرف .. ان يمد عينيه ويده .. وخياله .. ويلعب اول الأمر ، ثم يحول اللعب الى فن : رسم ، نحت .. تمثيل .. موسيقى ؟

www.alkottob.com

القرد والسلسلة والقرداتي !

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة في ان تتمشم في كل ما تجده كانها تريد ان تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذى تجده شيء يصلح للاكل . والقرد هو اكثر هذه الحيوانات رغبة في الاستطلاع . اما الانسان فهو اكثرها شراهة ويمكن ان يقال ان الانسان هيوان « دباغ » اى ياكل اى شيء وفي اى وقت ..

وكلما اصبح الحيوان متخصصا في طعام معين ، اصبح عالمه ضيقا محدودا وفي نفس الوقت خانقا ايضا .. فالحيوان الذى ياكل النمل لا يرى الا هذه الحشرة(١) .

وتصبح الحنيا من اولها لآخرها لا معنى لها الا اذا كانت على شكل نملة .. واذا اختفى هذا النمل لاى سبب مات هذا الحيوان .. !!

ولان بعض الحيوانات تخصصت في بعض الطعام ، فان الطبيعة قد اعطتها نوعا من الحماية . فحيوان التنفذ يستطيع ان يحدث

---

(١) انظر الطبعة الاولى من كتاب « من اول نظرة » ص ٤٥ وما بعدها ..

www.alkottob.com

اصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما . لان له درعا من الشوك يحميه من الاعداء .. لكن الحيوانات الاخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون فى حالة يقظة مستمرة .. فالانسان يجب أن يبحث من طعامه فى كل مكان ، وان يكون البحث واعيا والا مات .

والقرود عندها حب استطلاع شديد . تماما كالانسان ، ولكن عندما تكبر القرود ، فان هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الانسان الذى يقوده السؤال الى جواب ثم الى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الانسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شىء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وأن يبتعد عنه باحتراس ايضا ، ولكن اذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعلم أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من اجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة فى أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، وندخرها ونختزنها ونتذكرها فيما بعد ..

فالطفل الانسانى يريد ان يعرف ، يمد يده الى كل شىء ، ويضع اذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة من هؤلاء الاطفال الذين يستطلعون كل شىء بشراهة : انهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الاصح ان يقال : ان الوحوش هى التى تتصرف كالاطفال — اى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديها الاندفاع بالاحتراس ..

www.alkottob.com

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان ايضا : اللعب، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الانسانى ، فالصغار عموما يحبون الشيء الجديد . يمسكونه ، ويرمونه ويكسرونه ، ويخترعون اشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على ان ينقلوا الى آبائهم معنى الالعاب او الحركات التى اكتشفوها . أما الطفل الانسانى فيستطيع الى حد ما ، والفرق بين القرود الصغيرة والأطفال الصغار : ان القرود كلما كبرت قويت عضلاتها والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

واذا اعطينا القرد الصغير ورقة وقلما ، فانه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر الى ما احدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، واحيانا يرسم دوائر ناقصة .. واحيانا خطوطا متقطعة .. أما الطفل الانسانى فيهتدى الى الدوائر والمربعات .

والاطفال والقرود يحبون الخبط والرقع .. اى يحبون ان يلعبوا بالاشياء التى لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب اكثر .. يحبون البمب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الانسانى عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الانسانى وذلك بأن يجعل له عينين وفما واذنين .. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الراس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف ايضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف انه قادر على ان يلعب ، ولكنه لا يقدر على ان ينقل هذا الذى يمارسه الى والديه فيقول لهما ما الذى صنعه أو اهتدى اليه ، وانما هو رسم فقط ! .. انه

www.alkottob.com

كالذى وجد قرشـــــا على الأرض . وراح يلعب به فقط ولـــكن لا يعرف ان كان هذا القرش له معنى آخـــر .. او يســـتطيع ان يشترى به اى شىء .. او بعبارة اخرى : ان القرش لعبة ، اى انه يساوى ثمنه لعبا ، اى أن اللعب لذة مدفوعة الثمن فورا . فهو فى مرحلة اللعب لمجرد اللعب .

وفى عالم الاصوات : لا نجد أن للقرد الصغير او الكبير تجارب فى عالم الصوت ، فهو غير قادر على أن يكتشف شيئا جديدا ، ولا أن يقوم بتركيب كلمات او حروف ، ولا هو قادر على التـــلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل الأطفال عندما يكتشـــفون قدرتهم على الكلام ، فانهم يفرحون باختراع كلمات اخـــرى : اى بقلب الحروف ولخبطتها .. انها مهارة جديدة اكتشفوها فى انفسهم .. وان كانت القرود لها اصوات معروفة ثابتة .

وان كانت لها ايضا عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق او الفرح ، ولكنها دقات معروفة محدودة ، كمـــا ان القرود فى بعض الأحيان تنفخ فى الأجسام المفرغة الخوف .. ولكن القردة لم تستطع ان تجعل الشىء المفرغ عودا او تيثارا ، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة أن تجعل فرحتها منظمة .. او حركاتهـــــا مدروســـة كالرقص عند الانســـان . او كالألعاب الرياضـــية .. فالرياضة هى حركات ذات ايقـــاع ، هذا الايقاع متنوع من لعبة الى لعبـــة ..

حتى الكتابة هى أيضا نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضا .

www.alkottob.com

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا الى غيرنا ، ونقلنا أفكارنا من جيل الى جيل ، وأصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولا شيء جديد فى عالم الحيوان .

ولكن الجديد فى عالم الانسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، فاذا أصبح مألوفا اتجه الى غيره ، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط فى خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والأثاث ، ولكن الجديد فى أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الانسانية .. وهو الفارق بين الانسان والقرد ، أو بين القرد العريان والقرد ..

واذا رجعنا الى لعب الأطفال لوجدناه موجها الى الآباء فى أول الأمر ، فالأب يلاعب طفله ، والطفل يلاعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فان اللعب يتجه الى غيره من الأطفال .. اى يكون الطفل نشاط اجتماعى ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معا ، وهذه مرحلة دقيقة جدا فى حياة الطفل وسوف يكون لها اثر خطير فى حياته ، فالطفل الذى يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة فى محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذى يفشل فى ان يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر . واذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالبيانو او كالناى صعبة فى الطفولة ، فان علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأعقد .

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال ، اى الذى ليست له

www.alkottob.com

علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه فى وضع سيء وسوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا ..

ومن التجارب التى أجريت على القرود مثلا : اننا اذا عرفنا قردا من القرود الاخرى .. سنة وراء سنة ثم اتينا له بعد ذلك بقرود فانه يظل عاجزا من المشاركة معها فى اللعب او اللهو حتى فى الجنس .. بل انه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء ان القرود التى تنعزل طويلا اذا وضعت فى مجتمع القرود فانها تقف الى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. واحيانا تخفى وجهها بيديها .. كأنها فى حالة خوف أو خجل او عجز من الاشتراك فى اى عمل جماعى ..

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث فى عالم القرود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فاذا خاف عاد اليها فالأم تحميه بحنانها وترضعه مكافأة على سلوكه الذى لا يضره ، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فان الأم تطرده بعيدا عنها ، لكى يشترك مع القرود الاخرى فى اللعب فاذا عاد اليها فانها تضربه وتقسو عليه.. كأنها تريد أن تقول له : انك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر ، وفى هذه المرحلة نجد الأم اقل حبا لطفلها . ولا تنطلق لحمايته الا فى حالة الخطر الشديد أما اذا لم يكن هناك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فانها تطرده وتضربه،وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وأن يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الانسانى تماما ، اذا لم تحسن الأم تربية طفلها فى المرحلتين فان النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الانسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت

www.alkottob.com

له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

واذا عرف الحنان فى الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وانما سيظل كالطفل متعلقا بأمه ..

ولا يريد أحدا آخر غير الأم ، فاذا فقد الأم فانه يظل يبحث من الأم أو بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس أما لأحد ..

والانسان الذى يخاف من المجتمع يكون انسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا الانسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئا جديدا ، لأن الجديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمى ، ولكن نشاطه يجب أن يكون متكررا ، اى لا يأتى بحركات جديدة ، وانما هو أسير العادة التى استراح اليها .

بل اننا نجد الكثيرين من الهروبيين لهم حركات ثابتة .. يهزون رءوسهم أو أيديهم أو ارجلهم بصورة متكررة او يرضعون اصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبيين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوفا ، مألوفا أكثر من اللازم . اى جعلوا انفسهم منهومين .. عاديين .. لا يخاف منهم أحد أو لا يلتفت اليهم .. ومن الممكن أن تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد

www.alkottob.com

على كل شيء هو التعلن (عادى) ـــ اى يجعل العادة تتحكم فيه. حتى اصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف احدا ، ولا يخاف من احد ، وهنـــاك مثل شعبى يقول : آفتى : معرفتى ، وراحتى : ما اعرفش ـــ ومعناه انه لا شيء يخيف اكثر من المعرفة ، ولا شيء يريح اكثر من الجهل ! ..

ولا بد ان يكون المثل الاعلى عند هذا الطراز من الناس هو ان ياتى بالاعمال الرتيبة .. مثل دقات القلب فدقات قلب الام تريح الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل دقات القلب هو شيء مريح ايضا . او هو شيء يجعلنا نخفف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك ان تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية انه يدق باصابعه بشكل منتظم او يهز قدميه .. او يتحرك فى الغرفة .. والطالب اثناء الامتحان يضع القلم فى فمه .. او يلعب بشاربه .. ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل دقات القلب .

وهذه الحركات .. او هذه (اللازمة) لها فائدة : فهى تساعدنا على احتمال الشيء الجديد الذى ننتظره فى خوف .

واذا نحن اسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فانها تصبح فكرة متسلطة علينا .. اى اننا نضع القلم فى افواهنا دون ان يكون هناك امتحان .. او نروح ونجيء فى الغرفة من غير مناسبة .. من غير ان تكون لنـــا قدرة ارادية على ضبط هـــذه الحركات والتوقف عنها ! ..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل .. واذا ذهبنا الى حـــديقة الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة فى اقفاصها الحديدية .. وهى منعزلة عن العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية .. اى عن

www.alkottob.com

الاتصالات بالحيوانات الاخرى ، فهى فى حالة انسحاب وانزواء ، كانها هربت من الحيوانات الاخرى ، او هربت منها الحيوانات الاخرى .

ومن الافضل ان ننظر لانفسنا ونحن نقف امام اقفاص الحيوانات .. ان هذه الاقفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية الشديدة التى نحيط بها انفسنا وننسحب وراءها ، وننكمش وننطوى ونتقوقع ونجتر تجاربنا ولا نضيف الى انفسنا شيئا اجتماعيا جديدا. وانما نفرز من انفسنا نسيج دودة القز ونتوارى وراءها .. او نتدفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : انها تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا .. والانسان يفعل ذلك ايضا فى المعسكرات والسجون والمستشفيات والاقسام الداخلية للمدارس ، ونجد القرود تلعب فى اقفيها باعواد الشجر ، ونجد الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ، وبعض الحيوانات تشد شعرها ، او تعض نفسها او ترضع ثديها.

وقد يكون السبب ايضا هو التوتر الشديد او تكون انشاة غير السليمة .

يمكننا ان نقوم بتجربة بسيطة وذلك بان نلقى شيئا فى قفص قرد اعتاد ان ينعزل فان هذا القرد لا يحاول ان يتجه الى هذا الشىء الذى القيناه فى قفصه ، ومعنى ذلك انه لا شىء يثيره اى لاشىء جديد يثيره .. واذا كان الحيوان لا يلتفت الى الشىء الجديد ، فلن يعرف شيئا واذا كان الانسان لا يثيره الشىء الجديد ، فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك اقرب الى الحيوان .

واذا ذهبنا الى حديقة الحيوانات يجب ان نتذكر المدن الانسانية التى نعيش فيها ، انها ايضا مثل حدائق الحيوانات : كل انسان له

www.alkottob.com

قفص ، هذا القفص من أعواد حديدية ، هذه الأعواد هى الممنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق اذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان : احدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الانسانى قد علمنا أن نتجه الى الجديد ، بخوف .. أو على الأصح باحتراس . واذا كان الانسان قد مات بسبب رغبته فى المعرفة . فان الانسان حى لأن بعض الناس مات من اجل أن يعيش غيره ليعرف اكثر واكثر ..

واذا نحن نظرنا الى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قردا مربوطا فى سلسلة واذا وقف القرداتى ونحن أيضا ، وجدنا القرد يأتى بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك أن القرداتى قد علم القرد ان يأتى بهذه الحركات . اى ان القرد مربوط بسلسلة اخرى هى : العادة على اتيان هذه الحركات ..

فكأن القرد مشدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة اخرى لا تراها ولكن هناك سلسلة أخرى تشد القرداتى الى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم محدود ، عالم القرود ، ويمشى فى أماكن محدودة . ويعود الى بيته ويجلس الى جوار الحائط ولا ينام الا والقرد الى جواره والا على صوته ، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لاحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع .. فأى الاثنين هو القرد ؟ أيهما هو المربوط بالآخر .. من المؤكد ان القرد هو المربوط فى الرجل ، ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

www.alkottob.com

فليست الحيوانات هى وحدها المحبوسة فى اقفاص ، وليس الانسان هو الذى يذهب الى الحديقة ليتفرج على القرود .. انها ايضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدرى بها ! ..

فكلما ان هـــذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اســـمه « انساناتى » !

وكلنا كذلك !! ..

www.alkottob.com

لولا سلامك .. سبق كلامك !

لسببين يعتدى حيوان على آخر : دفاعا عن الارض التى يعيش عليهـا ، او حرصـا على السلطة التى يتمتع بها فى القبيلة اى انه يدافع من السلطة او عن الطعمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الارض ولا يهمها السلطة .. وحيـوانات تدافع عن مركزها ولا تهمها الارض . اما الانسـان فانه يدافع عن الارض والعرض والسلطة .

وفى جبلاية القرود نجد ان القرد الاقوى هو الذى يسيطر . أما قوته فهى فى عضلاته أو فى حيويته . فاذا كانت حيويته هى مصدر قوته فانه يمتلئ كل الاناث وكل الذكور ايضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبلاية !

وكما تطـور الانسان فى علاقاته الجنسية فاصبحت له انثى واحدة ، تطور ايضا فى ممتلكاته . فكل واحد له شىء يملكه : ارض او بيت . وقد وصل الانسان الى هذا الوضع منذ كان الاقوياء من الرجال يسافرون بعيـدا للصـيد . وكانوا يتركون بيوتهم

www.alkottob.com

واولادهم . ولذلك كان لا بد ان يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى . واذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى ، فكأنه يحمى الاقوياء — وهم اقلية — من الضعفاء وهم الاغلبية الساحقة ..

وعندما يشعر الحيوان برغبة فى العدوان فان تغيرات هائلة تجرى فى داخله . هذه التغيرات هى نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين :·قوة تدفعه الى الهجوم وقوة اخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة اخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع فى داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهيأ الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الاردنالين فى الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والاحشاء الى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الامعاء . ويصعب على الحيوان ان يتبول . ثم ان الكبد تفرز السكر فى الدم . وينشط الجهاز التنفسى . ويقف الشعر ويبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من اجل البقاء . والدم يندفع الى الاماكن التى تحتاج اليه . والى المخ لكى يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما ان سرعة التجلط معناها ان اى جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم هبثا . ونشاط الرئتين معناه أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الاوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذى يقوم بتبريد هذا الجسم الملتهب . ولذلك

www.alkottob.com

لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التى يصل اليها !

وكلما ارتقت الحيوانات اصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس فى التهديد . فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحنى . وهذه الحركات تبين كيف استعد الحيوان للمعركة ، وهى فى نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان .. وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

واذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال او بقتال ، استعاد جسمه نشاطه العادى .. فريقه يجرى ويوله ايضا !

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على ان هذه المنطقة التى يتبول فيها خاصة به . فهو يترك اثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجلها عند احد أعمدة النور ، فهذا هو المعنى . واذا كانت الكلاب تفعل ذلك بإسراف فى المدن ، فلأن فى المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها ويدفعها الى أن يحدد كل كلب مكانه وارضه ! وقد اكتسب السيد نشطة عادة اخرى : فله ذيل مريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التى تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هى انذار لكل الحيوانات الأخرى . هذه ارض تخص حيوانا آخر .. فاحترس !

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والعواء والفحيح والزئير .. واحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها اكياس هوائية تجعل حجمها اكبر وشكلها مخيفا !

www.alkottob.com

وهناك اشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر ان هناك خطرا .

ولذلك فالديك له عرف والاسد له ممرمة تجعل الراس اكبر . وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا اما التغيرات الظاهرة فهى ان عضلات الحيوانات تكون فى غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويجيء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس فى الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهـذا الدوران معناه ان هناك توازنا بين رغبته فى العدوان وبين رغبته فى الامتناع عن ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى راسه ويدق الارض بقدميه !

واحيانا نرى نوعا من التراجع او المراجعة . ولذلك يقـوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كان الحيوان قـد وضع « فله فى شيء آخر » فياكل مثلا او يهرش فى جسمه .. او ينظف فروته او يجمع الاعشاب او الاخشاب كانه يبنى عشا وهميا . وبعض الحيوانات تنام فجاة .. أو تتثاءب وتتمدد .

بعض العلماء يقول : ان الحيوان اذا اكل فهو جائع حتما . اذا هرش فان حشرة تلسعه . ومن الطبيعى أن يجوع الحيوان عندما تتبدد طاقته الهائلة فى حالة التعب أو العدوان !

ولكن هـذه الحركات التى يأتيها الحيـوان ليست الا محاولة

www.alkottob.com

لتخفيف درجة التوتر . أو ليست الا نوعا من الانسحاب . وقد ينتهي الموقف هكذا . وينصرف كل حيوان الى سبيله .. ولكن اذا فشلت هذه الحركات في تهدئة الحيوانات كان تكون قطعانا كبيرة . وكان يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت الحيوانات أنيابها وأظافرها وقرونها .. وذيلها يكون كالكرباج .

ولكن من النادر ان يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر ان يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد اذا التقى بأسد فانه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يأكله .. أي ان الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان .. فاذا انتصر الأسد القوي على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه . أما المنهزم فعليه ان يؤكد انه انهزم ! وعليه أن يهرب اذا استطاع .

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات : من بينها أن ينكمش المهزوم وان ينام على الأرض ويحني رأسه ويغمض عينيه ولا يزار .. واحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له احدى يديه .. وقد ينقض الحيوان المنتصر فيعض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفي بهذا الاستسلام .

وبين القرود نجد الشمبانزي يمد يده كأنه يتسول .. وخصوصا الاناث ، والاناث تعطي نفسها للذكر . وفي هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينجسم الموقف والذكور الضعفاء تفعل ذلك أيضا !

وهذا هو قانون الغابة : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . واذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف ..

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان . مع فارق ان كل

www.alkottob.com

هذه الاضطرابات تبدو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان — اى .. الانسان .

فوجهه يصفر ويحمر .. من الغضب ومن الخجل . اما شعر الانسان فلا يقف .. رغم اننا نستخدم هذا التعبير !

وعند الغضب تنحنى الذراع وتجتمع اصابع اليد على شكل قبضة وهذا استعداد من بعيد . او تهديد من بعيد . واحيانا نضرب المنضدة او الحائط او نضرب رءوسنا . ولكن ما نزال على مسافة من الخصم .

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب الى الشخص الذى جاء يخلصنا . ولذلك نقول : ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه .. والسيدة التى تكسر الاطباق فى حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم هذه الآنية وانما هى تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط ما تفعله القرود فهى فى حالة الغضب تحطم الأفصان والثمار وجدران القفص !

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان فى نيته ان يضرب بيده يجدها مفرودة . واصابعه متراخية . وهى عملية تحويل الغضب الى تهدئة .. وهدوء . وكذلك « الطبطبة » على الكتف تهدئة ايضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما يخفض « عرفه » والأسد عندما يخفض شعر رأسه .. وخلع البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان اقل طولا ، واقل صلابة .. على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل . وعند العدوان نبحلق فى الخصم . فاذا اغمضنا العين او نظرنا الى الارض كنا بذلك نهدىء انفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد فى حاجة الى الحذر والترقب . ونحن فى حديثنا العادى لا ننظر الى الذين

www.alkottob.com

نتحدث اليهم طوال الوقت ، وانما فقط فى نهاية كل جملة لنعرف وقع الكلام ..

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر الينا من وراء منظار يجعلنا نشعر بانه ليس وديا .. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين بلا أجفان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات .. او مثل هذه العيون نجد ان العيون مرسومة على اجنحة الحشرات . فاذا احست خطرا نشرت اجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة رهيبة تخيف اعداءها !

وبعض الأسماك لها ايضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن نستخدم الاقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل المصابيح الامامية ذات اشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام فى المدن .

بل ان الشركات لم تكتف بهذه « العيون المخيفة » وانما جعلت للسيارات اسماء مخيفة ايضا !

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف اطلاق النار من العينين وتجىء القبلات بعد السلام .. كما نفعل مع رجال الدين او الآباء . أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية قد تحولت الى مجرد لمس اليد باليد وبالشفتين — اى الحد الادنى من تحقيق رغباتنا الخفية !

ومن الغريب ان الاحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا « طفوليا » .. فينحول الرجل الى طفل .. او يقول كلاما مثل كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . اى انه يحول

www.alkottob.com

نزعاته العدوانية الى نزعات استسلامية او سلامية .. ويتحول الرجل والمراة الى اسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. او يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل !

والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لاكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

اما « الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرود ان القرد الذى انهزم او استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التفلية » تهدىء اعصابه . وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البريء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العـــدوان او الغضب نقوم نحن بأعمال اخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشـــعل سيجارة . او نمسح النظارة . او نلعب فى شواربنا او ننظر الى الســـاعة او نحرك عقاربها . او نرتب الاوراق التى امامنا او ننظر من النافذة . او نطلب اى رقم فى التليفون . او نقضم اظافرنا باسنانا او نطقطق اصابعنا ..

ونحن قادرون على الكذب بملامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا او بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك اناس كذابون محترفون : الممثلون.فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة اخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والانسان لانه يحرص على ان تكون له ارض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وان يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة اولاده على مكتبه او صورة زوجته . وكذلك يحرص على ان يضع فى سيارته نوعا من العرائس او الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الاخرى .. ملايين السيارات الاخرى التى

www.alkottob.com

تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب . انه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى .. واذا سألته لماذا ؟ قال لك : انها هكذا الطف وأجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وانما الصحيح انه يريد ان يجعلها مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به هو .. ومن الضرورى ان نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على اعمدة النور . نفس الموقف وان كان الأسلوب مختلفا فكلاهما ـــ كلانا نحن والكلاب ـــ يريد أن يؤكد انه هنا .. وان هذا المكان خاص به وحده . وانه مضطر ان يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها ابعد مما نتصور.. مثلا عندما نكسر اشارة المرور . ويدركنا عسكرى المرور . فما الذى نفعله ؟ الافضل أن نتحدث الى عسكرى المرور وانت فى سيارتك . اى فى مكانك . فى ارضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمانينة . وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجىء العسكرى اليك .. اى الى حدود مملكتك .. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى الى اقتراب ودى . وبذلك تكون انت وديا وهو ايضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن اذا نزلت من سيارتك ، اى تركت ارضك . وذهبت الى ارضه . فالموقف فى يده . وهو سيده .. والنتيجة ضدك عادة !

وقد تطورت وسائل الاقتراب من ارض اعدائنا .. ومن اعدائنا فكان لا بد ان يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ، فاصبح فى الامكان قتله عن بعد .. والآن تحولت السهام الى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لانصيب العدو وانما نقتله .. اما الحيوانات فهى تهزم عدوها فقط ..

www.alkottob.com

رقم الإيداع ١٧٩٣ / ١٩٨٨
الترقيم الدولي . ٣ ـ ٣٠١ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصري ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف . ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

To: www.al-mostafa.com

www.alkottob.com